محمد عادل فارس

لأنهم قالوا لا

BECAUSE THEY SAID NO

هكذا ببساطة أراحوهم وأراحوا المجتمع والرقابة

الثقافة والصحافة من التفكير والنقد ثم الحساب

شر بلا حدود



لا ....

هذا الكتاب

قصص حقيقية لأناس عاشوا بين خوف مزعج وشوق مقلق قالوا لا و أحبوا الحرية وبحثوا عن مفقود عزيز في بلاد تسترخص الكرامات

لا

قالها أناس في بلاد تستيقظ على شعارات الحرية والوحدة والاشتراكية ويقدم الأبناء في الليل قرابين وضحايا من أجل الحرية المفقودة ...

عاشوا لها ...

يرقبونها ، ينادون اسمها ، يصلون من أجلها ،

مشوا نحو الفجر الباسم بطهر وعزة وكبرياء ...

لم يتوقعوا أن كمينا قد نصب لهم فمضوا طاهرين كالنور كل واحد يردد :

ماض وأعرف ما دربي وما هدفي ...

وفجأة ساد الظلام وعندما يخيم الليل تفقد القافلة البوصلة والاتجاه الصحيح ....

والليل عتمة ، وتكثر فيه الخفافيش التي تمص الدماء ، وفيه الغدر مباح ، ووقعت المأساة ، ورفرفت أرواح الطاهرين إلى حيث كانوا يحلمون حيث الرحابة والحرية والكرامة والعدالة ومنهم من بقي حيا على العهد

لم يكن مطلوبهم الوصول إلى الكراسي ، وإنما تهجئة لا ...

و إيجاد مناخ قائم على المؤسسات الدستورية ، وعلى إحقاق الحقوق ودعم الهيئة التشريعية ، والتأكيد على قيمة الحرية والتعبير ، وعلى كرامة الإنسان وحمايته من عسف وظلم السلطة.

الديمقراطية هي الحل هي (الروشتة) المطلوبة لبلاد لها مع التاريخ حكاية ...

علي المقدسي

بسم الله الرحمن الرحيم

لأنهم قالوا لا

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

محمد عادل فارس

عنوان الكتاب : لأنهم قالوا لا

الناشر : ناشرون بلاحدود

المؤلف : محمد عادل فارس

إهداء

إلى (الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر. وما بدلوا تبديلاً).

شكر وعرفان

"من لم يشكر الناس لم يشكر الله"

أقدم شكري لكل من كان له دور في إخراج هذا السجل إلى الوجود، مَنْ حرّضني على الكتابة، ومن شجّعني، ومن تحمّل جهود الطباعة والإخراج... وأخص بالذكر الأخوين الأستاذين الأديبين الناقدين: محمد الحسناوي وعبد الله الطنطاوي، فقد كان لتشجيعهما، وتوجيههما، ومراجعتهما اللغوية أطيب الأثر.

محمد عادل فارس

تقديم

الأديب الناقد الأستاذ محمد الحسناوي[1]

سورية .. الأولى في أدب السجون

(أدب لم يزل تحت الأرض ، ولم يخرج بعد إلى النور ،وهو أدب السجون . هذا الأدب لم يزل أبطاله في الغياهب المختلفة ويتوقع أن يكون له شأن لو قيّض له من يجاهدون في سبيل جمعه وتدوينه . .. ولو كنتم تعلمون مقدار الخسارة ، التي سيمنى بها الأدب الإسلامي خاصة ، والفكر الإسلامي عامة ، لضياع أدب السجون ، لقاتلتم بأظافركم وأسنانكم للحصول عليه أو على بعضه. فليحرص كلّ كاتب على البحث عنه والوصول إلى مظانه ، والحصول عليه ، وتوثيقه . فهذا الأدب هو الوثيقة الحقيقية الوحيدة الباقية للتاريخ ، من حياة هذا التاريخ.

محب الدين داوود – موقع رابطة أدباء الشام – كلمة الافتتاحية)

(سيرشحنا المستقبل كأصحاب أكبر تراث عالمي في أدب السجون .

فرج بيرقدار – مقابلة مع عادل محمود – موقع الرأي)

---

١ - عضو رابطة أدباء الشام

لعل القطر السوري يحوز قصب السبق في ميدان (أدب السجون)[1] فلا تكاد تنجو من هذا الشرف / العار أسرة سورية ـ بفضل أربعين عاماً من حكم الطواريء ومحكمة أمن الدولة الاستثنائية وزوار الليل الأشاوس والغيلان المتناسلة على رأس أربعة عشر جهازاً قمعياً سوفياتياً نازياً وحكومات تأكل المواطنين ، ثم يأكل بعضها بعضاً ، كما تأكل الهرة أولادها .

يشرفني ويسعدني في الوقت نفسه أن أخط كلمات في التقديم لأول إنتاج مهندس سوري حلبي من حيّ المشارقة ، تربى في (سجون الرأي) السورية بعد أن نذر نفسه في سبيل الله لخدمة الناس وحب الناس ونظافة اليد والقلب واللسان .

كان يميل إلى التدين منذ نعومة أظفاره ، ويتمنى أن يتخرج في كلية الشريعة لكن أستاذ العربية ، العليم بمقتضيات العرض والطلب في سوق الحياة أقنع أهله بتوجيه الفتى إلى الدراسة العلمية ، فصار إلى (كلية الهندسة) ، ثم إلى سجون الرأي .

ما علاقة (الهندسة) بسجون الرأي ؟

بل ما ذنب ثلاثة أرباع الشعب السوري ليستضافوا في سجون الرأي بالدور أو بـ(الكرف) جماعات جماعات ، وربما راح بعضهم ضحايا المجازر الجماعية .

---

١ - انظر على سبيل التمثيل لا الحصر : دواوين (وما أنت وحدك – رقصة جديدة – في ساحة القلب – حمامة مطلقة الجناحين – تقاسيم أسيوية – خيانات اللغة والصمت) لفرج بيرقدار، وديوان مروان حديد – ومجوعة أشعار(من ذكريات الماضي) لعلي صدر الدين البيانوني، وديوان (ترانيم على أسوار تدمر) ليحيى الحاج يحيى، وديوان (القادمون الخضر) وروايتي (نقطة انتهى التحقيق- ما لا ترونه) لسليم عبد القادر، وديوان (الظل والحرور) لعبد الله عيسى السلامة، وديوان(في غيابة الجب) وقصص (بين القصر والقلعة) ورواية (خطوات في الليل) لمحمد الحسناوي، وقصص (الخطو الثقيل) (الوعر الأزرق) (النحنحات) لإبراهيم صموئيل، وقصص جميل حتمل، وقصص (آه .. يا وطني) (تقول الحكاية) ورواية (بدر الزمان) لفاضل السباعي، ورواية (الشرنقة) (سقط سهواً) لحسيبة عبد الرحمن، ورواية (الصلصال) (طفلة من السماء) لسمر يزبك، ورواية (الفقد) للؤي حسين، ورواية (غبار الطلع) لعماد شيحة، وكتاب (التحقيق) لمحمود ترجمان، و(كتاب الخوف) لحكم البابا، ورواية (عينك على السفينة) لميّ الحافظ، وكتاب (شاهد ومشهود) لمحمد سليم حماد، وكتاب (خمس دقائق) لهبة الدباغ، وكتاب(في القاع) لخالد فاضل، و رواية نشرت في جريدة النهار لهالا الحاج ، وكتاب (النداء الأخير للحرية) لحبيب عيسى، وشريط (ابن العم) لمحمد علي الأتاسي، وشريط (قطعة الحلوى) لهالة محمد.

إن اختصاصي الأدبي يخولني أن أتلمس في حروف المؤلف (الرهيبة) دقة المهندس وصدق العالم وإيجاز الخبير . أسلوب لا يمكن إلا أن تحترمه وتعجب به ، بصدق نبرته وتعبيره عن صاحبه وعن التجربة/المأساة التي يتحدث عنها . هناك من ابتكر تسمية (الأدب التسجيلي) ، وأزعم أن صاحب هذا السفر الملتهب (قف . ممنوع !) صنع لنفسه أسلوباً (فوق التسجيلي) : من حرص على الدقة والتواضع ونثر الانطباعات والتحريضات والانتقادات نجوماً فشموساً فصواريخ عابرة للأضلاع والوجدانات والمحيطات على حدّ سواء . من غير ما اتفاق مسبق ولا تخطيط ..يذكرني أسلوب محمد عادل فارس الموجز المكثف تكثيف العطر والحكم والأمثال .. بأسلوب الدكتور مصطفى السباعي ـ في كتابه (هكذا علمتني الحياة) . لغة برقيات نارية .. قصراً ودفئاً واستهدافاً . أقل الفروق بين الرجلين اللذين يسطران مذكراتهما أن الفارس اختص بزبانية السجون الذين هم أذرعة السلاطين ، على حين غلب على اهتمامات السباعي التنديد بعلماء السلاطين . إنهما سجلا تجربتهما أدباً نابضاً ، سيذكره التاريخ الوجداني للإنسان وللأمم .

محمد عادل فارس مواطن شريف (نظيف) ، لم يحمل سكيناً ولا عصا ، يُخطف من عمله مرة ومن فراشه مرة ، ويمدد على (مشرحة) التحقيق أياماً وشهوراً وسنين ـ وتُغرز فيه سفافيد من خيزران أو حديد أو كهرباء وشتائم ، أشدّ لذعاً من النار والحديد والصرعات الكهربائية عالية التوتر حتى يمل الزبانية الكبار والصغار من موجات التعذيب ، فإذا ملوا منه قذفوا به إلى كهوف الظلام والعفن والحيوانية . وإذا قال لهم : هذا مخالف للدستور الذي (خيّطتموه) على قياسكم ..ضحكوا وقالوا : وهل تصدقون ما نقوله لكم في الدستور ؟ وإذا قال لهم : إن أصدقائي الطلاب الذين أعلنوا عن رأيهم المكبوت على صفحات الجدران لا يستحقون كل هذا العذاب .. قالوا له : لا دور لك فعلاً ، ولكننا كنا نريد (ضربكم) منذ زمن بعيد ، وكنا ننتظر مناسبة ، فهذه كانت المناسبة.

إذن ليست هناك علاقة تعاقدية بين الحاكم والمحكوم ، كما في الشريعة السمحاء وفي المجتمعات المتحضرة ، بل بين اللص والمواطن ، بين قاتل ومقتول طوال أربعين عاماً ونيّف .

انظر إلى بقايا (الفطرة)أو الخير التي ما زالت في نفوس بعض الجلادين ، التي أشار إليها الفارس أكثر من مرة . هل نتوقع من الضحية التي لاقت الأمرين من هذه الشرائح المفترسة أن تعترف لبعضها بمواقف خيرة ؟ قد تقول : هذه أمانة علمية ، حصلت للكاتب من الدرس (الهندسي) الموضوعي . وقد تقول : بل هي جزء من تصور محمد عادل فارس للإنسان والكون والحياة وخالق الإنسان والكون والحياة ، ذلك التصور الإسلامي الذي يعتقد أن الإنسان مفطور على الخير ، لكن شياطين الإنس والجن تجتاله فتحرفه (ولا يجرمنّكم شنآنُ قوم على أن تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى) ، فالإنسان بين النفس اللوامةً والنفس الأمارة بالسوء ، فليختر. وصاحب الاختيار صاحب قرار ، وصاحب القرار خطير بخطورة القرار الذي يتخذه ، فإما جنة وإما نار ، إما سعادة وإما شقاء في الدنيا والآخرة. تلك أمانة عُرضت على السماوات والأرض فأبينَ أن يحملنها ، وحملها الإنسانُ إنه كانَ ظلوماً جهولاً .

يقول الفارس : (كان السجن لي مدرسة عرفت فيها نفسي وعرفت شرائح مختلفة من البشر: من الإخوان ، ومن الإسلاميين الآخرين – وبخاصة أعضاء حزب التحرير – ومن الفلسطينيين – من فتح والجبهة الشعبية وغيرهما – ، ومن البعثيين الذين انشق عنهم حافظ ، أقصد اليمينيين جماعة أمين الحافظ ، واليساريين جماعة صلاح جديد .... فضلاً عن أفراد من هنا وهناك ، من التنظيمات الكردية ، ومن أصحاب انتماءات مختلفة ، ومن أناس غير سوريين : عراقيين وأردنيين وبريطانيين وكنديين وإسبانيين ...) .

ما هذه المدرسة التي لم توفر مواطناً سورياً ولا عربياً ولا أجنبياً ؟؟
يقول الفارس أيضاً : (الصفة العامة لمعظم ضباط المخابرات والمحققين الذين عرفتهم ، أنهم قليلو الذكاء ، ضعيفو الضمير ، محدودو الثقافة ، جفاة الطبع ،منحدرو الأخلاق ...)
فلنتصور كيف يغدو هؤلاء الأغبياء الفاسدون حكاماً لسلالة أبي سفيان وعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي وأبي فراس الحمداني .
يقول الفارس : (دخلنا فرع المخابرات العامة هناك ، الذي يسمى (بناية العداس) أو(مدرسة نابلس)، إذ يقال : إن المبنى كان يملكه أحد الأثرياء من آل العدّاس ، وصادرته الدولة ، وجعلته مدرسة باسم ثانوية نابلس ـ ثم وجدت أن الأنفع للمجتمع أن يصير فرعاً للمخابرات ، فصار!!) .
أولاً : هل ترى معي أن تحولات هذا المبنى تعكس بشكل رمزي بسيط .. تحولات الوطن السوري بأسره من مجتمع مدني مسالم إلى سجن قمعي كبير ؟؟
ثانياً لننبش معاً بعض ما في هذه العبارات من منجزات تعبيرية تفصيلية :
يقول الفارس : (دخلنا فرع المخابرات العامة..) ،والحقيقة أدخلونا مجبرين قهراً لدرجة الاستسلام والقول: نحن دخلنا...
يقول : (يسمى ...) ، والحقيقة كان يسمى ...
يقول : (وصادرته الدولة ..) ، لم يذكر سبب المصادرة ، كأن من الطبيعي أن الدولة تصادر الممتلكات الشخصية للمواطنين متى تشاء وكيف تشاء وبلا سبب قانوني....
ويقول : (وجعلته مدرسة) ، هذه مرحلة من مراحل (الجعل) ...
ويقول : (ثم وجدت أن من الأنفع للمجتمع أن يصير فرعاً للمخابرات) هكذا بلا سند قانوني .

ويقول : (فصار!!) ، كأن الدولة (إله) أو حلت محل الإله (تقول للشيء: كن فيكون) ، وهذا هو جوهر الفساد في الأرض .. أن تحل الألهة البشرية محل الإله الحقيقي العادل الرحمان الرحيم ، جبار السماوات والأرضين. ودعك من سخرية (الأنفع للمجتمع) التي تعكس زيف الأقوال والشعارات المضوغة صباح مساء . هكذا ببساطة أراحوك وأراحوا المجتمع والرقابة الشفافة والصحافة من التفكير والنقد ثم الحساب .

الـذيـن قالـوا لا

سيرة ذاتية

ما كنت أقصد أن تكون هذه المذكرات "السجنيّة" سجلاً لحياتي الشخصية، لكنّ أخاً فاضلاً اطلع عليها قبل نشرها، ورأى أن عرض السيرة الذاتية في مقدمتها، ولو باختصار، من شأنه أن يُحدث في نفس القارئ تعاطفاً وجدانياً، أو تقمصاً وجدانياً.

***

اسمي الكامل محمد عادل بن عبد القادر فارس.

ولدت في مدينة حلب الشهباء في ١٩٤٤/١/٥، في حي شعبي عريق، هو حي المشارقة، في الجزء الغربي منه، المعروف بحي المزرعة، المجاور لـ"قبر هنانو".

يُعرف أهل الحي بالمروءة والشجاعة والشهامة.

وهم جميعاً مسلمون. لكن إسلامهم –في أيام صباي- يقترن بكثير من الجهل، فهو عاطفة وتقاليد، أكثر منه تديناً واعياً. فالشباب بعيدون عن التدين، وكثير منهم من يرتكب المحرمات.... وهم، مع ذلك، يتعصبون للإسلام، ويغارون على العِرض غيرة شديدة. والعِرض عندهم مقصور على ستر المرأة وعفّتها وسمعتها...

ويغلب على الحي آنذاك الأميّة والفقر، إلى جانب قليل من المتعلمين، وقليل من الموسرين.

ولقد كان أبي –رحمه الله– من متوسطي الحال في ذلك الحي! وكان على جانب من التديّن، ويحظى باحترام أهل الحي، واحترام التجار الذين يتعامل معهم... بسبب استقامته وسماحته وحرصه الشديد على أداء الأمانة والوفاء بالوعد والعهد. وقد كانت له دكان صغيرة، اقتطعها من البيت الذي نملكه، يعمل فيها سمّاناً، أي بقّالاً.

أما الوالدة –رحمها الله– فقد كانت أكثر تديّناً، وأكثر ثقافة!! فعلى الرغم من أمّيتها، فقد تأثرت بوالدها وإخوتها (جدي وأخوالي)، وقد كان جدي –رحمه الله– يحضر دروس العلماء، وكثيراً ما يقرأ تفسير الجلالين وغيره، وكان أخوالي على مستويات مختلفة من التعلم!.

ومنذ نعومة أظفاري بدأت التعلم في الكتاتيب، عند المشايخ و "الخوجات" وقد أنجزت تعلم القرآن الكريم كاملاً وأنا ابن ست سنين. وأكثر من أفادني في ذلك " الخوجة بديعة أبو صالح" –رحمها الله– فقد كانت ذات هيبة ووقار، وحزم وعلم.

بدأت الدراسة الابتدائية عام ١٩٥٠-١٩٥١م، في مدرسة "الاتحاد الوطني" في حي الكتّاب، الذي يمثل الجزء الشرقي من حي المشارقة. وقد كنت في مستوى دراسي يتراوح بين الجيد والجيد جداً، ونلت شهادة الدراسة الابتدائية صيف ١٩٥٥، وكانت المرحلة الابتدائية آنذاك خمس سنوات.

ومع أن مجموع علاماتي في الشهادة الابتدائية كان عالياً، فإن قبولي في ثانوية المأمون، التي تبعد عن بيتنا مسيرة بضع دقائق، كان متعذّراً أو متعسراً!

كانت الثانويات تضم الصفوف من السادس حتى الثاني عشر! وكانت ثانوية المأمون، أو التجهيز الأولى (كما كان يُقال لها)، مخصصة لأبناء الأحياء الراقية، فلم أتمكن من تحصيل قبول فيها إلا بوساطة بعض الأقرباء والجيران، لاسيما أستاذ اللغة العربية الشهير علي رضا!.

وفي الحقيقة، كنت أرغب بالدراسة في الثانوية الشرعية، انسجاماً مع توجهي الديني العفوي، لكن الأستاذ علي رضا نفسه، أقنع أهلي بالعدول عن تلك الفكرة، وقال لهم: تلك الدراسة لا تؤهله إلا لأن يكون مؤذناً أو إمام مسجد!.

لم أندم على دخولي الدراسة العامة، بل تجاوبت معها، ونلت الشهادة الثانوية في صيف ١٩٦٢، بمعدل عال! وكنت طوال دراستي أحب مواد اللغة العربية والتربية الإسلامية والرياضيات والعلوم.

وهنا أيضاً كانت رغبتي الحقيقية أن أدرس الشريعة، أو الأدب العربي، لكن اعتباراً آخر صرفني عن ذلك. فالدراسة في أي من الاختصاصين المذكورين ستتم في جامعة دمشق، وهذا يرتّب علي نفقات السفر والسكن، فضلاً عن الأقساط الجامعية والكتب... مما يعجز والدي عن دفعه. وكان بالإمكان أن أدرس من غير دوام في الجامعة، وأكتفي بالسفر لأجل التسجيل والامتحانات فحسب... لكنني، في هذه الحال، لن أتمكن من التلقي على الأساتذة الكبار، ولن أتمثل المعارف المطلوبة بعمق، إنما سأحصل على شهادة لا تسمن ولا تغني من جوع. وكنت أرى —ولا أزال- أن من اختار الدراسة في فرع من فروع العلم فعليه أن يتقنه.

هكذا كانت قناعتي. وكان علي أن أختار بين كليات جامعة حلب: كلية الهندسة (بفروعها: المدني والمعماري والميكانيك والكهرباء) وكلية الزراعة وكلية الحقوق. فاخترت دراسة الهندسة المدنية.

وقد تجاوبت كذلك مع الدراسة وأحببتها، وأفدت منها تنمية التفكير العلمي، لاسيما الجانب الرياضي منه.

وتخرجت في صيف ١٩٦٧، بدرجة "جيد".

ولا زلت أذكر أنني خرجت من امتحان إحدى المواد، فرأيت الطلاب متجمعين في ساحات الكلية يتحدثون عن حرب اعتدت فيها إسرائيل على مصر...

وتوقف الامتحان نحو شهر أو يزيد، ليستأنف من جديد.

وبعد تخرجي في كلية الهندسة انتسبت إلي كلية الشريعة، ودرست فيها سنة واحدة، وتركت الدراسة على إثر قبولي موظفاً في مؤسسة المشاريع الكبرى.

وفي الحقيقة فإن السنة التي أعقبت تخرجي في كلية الهندسة، كانت سنة غنية في حياتي. ففضلاً عن نشاطي الدعوي في صفوف جماعة الإخوان المسلمين، وفي المساجد، فقد عملت متدرباً في مكتب المهندس عبد العزيز رجب باشا، وفق النظام المعمول به في نقابة المهندسين، وفي الوقت نفسه درستُ ودرّست. درستُ في كلية الشريعة، ودرّست مادة الرياضيات في إعدادية الحسن بن الهيثم وأنهيت العام الدراسي والامتحانات وقدّمت نتائجها إلى إدارة المدرسة، ثم ذهبت إلى دمشق لامتحانات كلية الشريعة، وكانت قد انقضت امتحانات ثلاث مواد، فتقدمت إلى امتحان المواد السبع الباقية ونجحت فيها جميعاً بفضل الله.

***

كان توجهي الإسلامي –في طفولتي ومراهقتي- يتراوح بين العاطفة والالتزام السلوكي، صعوداً وهبوطاً، لكنني لم أتوجه مطلقاً وجهة بعيدة عن الدين، ولم أنخرط فيما ينخرط فيه بعض أبناء جيلي من انحرافات سلوكية.

وبدءاً من عام ١٩٦٠ بدأ التزامي يتبلور أكثر، ويتعمق أكثر، وقراءتي تتوجه نحو الكتب الدينية، إلى جانب الكتب الأدبية. ورحت أحضر دروس المشايخ: عبد الفتاح أبي غدة، وعبد القادر عيسى، وعبد الله سراج الدين، ومحمد السلقيني، وعبد الوهاب سكر، ثم محمد الحامد، رحمهم الله

جميعاً، فضلاً عن علماء أفاضل حضرت لهم مجالس علم أو خطباً، قليلة العدد، لكنها غزيرة الفائدة، كالشيوخ الفضلاء إبراهيم السلقيني، ومحمد علي الصابوني ومحمد عوّامة وعبد الحميد طهماز ومحمود الحامد ومحمد بشير الشقفة وغيرهم وغيرهم...

وقد أدرجت أسماء شيوخ حمويين، لأنني سكنت حماة في أثناء وظيفتي مهندساً في المشاريع الكبرى.

لكن الشيخين اللذين كان لهما أكبر الأثر في ثقافتي وتوجهي هما:

الشيخ عبد الفتاح أبو غدة –رحمه الله– الذي أفدت منه الكثير الكثير في الفقه والأخلاق والوعظ الراقي والذوق والأدب... وفي الولاء للإسلام وقضاياه، وفي حب العلم والقراءة...

والشيخ محمد السلقيني –رحمه الله– الذي أفدت منه شيئين عظيمين، إلى جانب أشياء مفيدة كثيرة، الشيء العظيم الأول هو فهم العبارة الفقهية، أي القدرة على حل عبارات كتب الفقه القديمة، والشيء العظيم الثاني هو الإخلاص والتجرد والتربية بالحال، فقد تعلمت من تواضعه الحقيقي العفوي ومن تضحيته بالمال والجهد والجاه... مالا يمكن أن أتعلمه لو قرأت كل مجلدات المكتبات!.

وفي مطلع ١٩٦٤ تقريباً انتسبت فعلياً إلى جماعة الإخوان المسلمين، وكانت السنوات الأولى من هذا الانتساب تمثل ذروة نشاطي الدعوي.

وفي نيسان ١٩٧٣ دخلت المعتقل لمدة أربع سنوات.

وفي نيسان ١٩٧٩ دخلت المعتقل مرة ثانية لمدة عشرة شهور!

وفي كانون الأول ١٩٨٠ غادرت سورية فراراً بديني!

****

من أهم الشخصيات التي تأثرت بها الشهيد سيد قطب، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

وبطبيعة الحال فقد تأثرت بعشرات الشخصيات الأخرى، بل بمئاتها، من علماء وأدباء وخطباء ومدرّسين وزملاء..... من إسلاميين وعلمانيين.

***

قراءاتي متنوعة، في علوم الشريعة (التفسير والفقه وأصول الفقه وعلوم الحديث...)، واللغة العربية وآدابها، وفي علوم النفس والتربية، وفي الثقافة العلمية، لاسيما الطبية.

***

تزوجت في أواخر عام ١٩٧١، من امرأة تقية، صبرتْ معي على البأساء والضراء، على السجن الطويل، وعلى الغربة، وعلى الانهماك في أعمال الدعوة... وما يرافق ذلك من متاعب وحرمان...فكانت زوجاً صالحة... أسأل الله تعالى أن يثيبها على صبرها وبذلها، ويجزيها عني خير جزاء.

وقد رزقت منها ثمانية أولاد: اثنان من الذكور، وست من الإناث... أسأل الله لي ولهم الثبات على الإيمان، والوفاة على الإسلام، وأن يلحقنا بالصالحين.

الولد البكر عندي بنتٌ ذاقت اليُتم وأنا حيّ، حيث تم اعتقالي وعمرها نحو ثلاثة أشهر، وخرجتُ وعمرها أربع سنوات وثلاثة أشهر... وكان لأمها وبيت جدها فضل كبير في رعايتها وتخفيف آلام اليتم عنها! جزاهم الله خيراً.

أربعة من أولادي تخرجوا في الجامعات، والأربعة الآخرون على مقاعد الدراسة في مراحل مختلفة منها.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

ابو عبيدة

محمد عادل فارس

السلام عليكم

-١-

الاضطهاد وما يتبعه، وما قد يتبعه، جزء من نظام "حزب البعث العربي الاشتراكي" الذي ابتلي به قطرنا السوري، وانخدع به بعض الناس فترة من الزمن، ولا يزال بعضهم مخدوعاً به.

من توابع الاضطهاد في قطرنا: الاعتقال لأهل الرأي، والتعذيب الوحشي بدنياً ونفسياً، بل الاعتقال كذلك لزائري القطر من سيّاح وغيرهم!... وانتشار الرشوة على المستويات كافّة، ونشر الرذيلة، وتكميم الأفواه، واحتكار الإعلام، ومنع تشكيل الأحزاب السياسية والجمعيات الثقافية والنوادي... إلا ما ينام على يد السلطة ويأتمر بأمرها ويسبّح بحمدها!. والتمييز والتسلط الفئويّان والطائفيان، وممارسة ألوان من الظلم. منها ما يشمل الشعب كله أو معظمه، ومنها ما يخصّ فئات معينة كالإسلاميين والأكراد والتنظيمات التي لا تسير في فلك السلطة، كبعض أجنحة البعث الخارجة عن الطاعة! وكثير من التنظيمات الفلسطينية....

-٢-

الفترة التي أتحدث عنها في هذا الكتاب هي الفترة الممتدة من ١٩٧٣/٤/٦ إلى ١٩٧٧/٤/٧، وهذه الفترة هي جزء من الحقبة الكئيبة التي أقعى فيها حافظ أسد على صدر الشعب، بأجهزته "الأمنية" وبالأشقياء

من أبناء طائفته وغيرهم، وأبعد المعارضين له والمناوئين والشرفاء، سواء أكانوا من أبناء الطائفة أم من غيرها... أي أنه مكّن جزءاً يسيراً، من الحثالات، وأقصى جماهير الشعب، وفرض وصاية التّحوت على الوعول!.

قضيت الفترة المذكورة في عددٍ من السجون:

١ - من ١٩٧٣/٤/٦ وحتى ١٩٧٣/٩/٦ (تقريباً) في فرع مخابرات حلب، المعروف باسم سجن أمن الدولة، وكان رئيس الفرع آنذاك محمد خير دياب، ونائبه محمد سعيد بخيتان، والمحقق عبد القادر حيزة، وأبرز الجلادين والسجانين: جاسم وشيخو وأبو حميد...

٢ - ومن ١٩٧٣/٩/٦ وحتى ١٩٧٥/١٠/٦ في فرع الحلبوني (دمشق).

٣ - ومن ١٩٧٥/١٠/٦ وحتى ١٩٧٧/٤/٧ في سجن حلب المركزي.

وكان وصولي إلى سجن حلب المركزي في ليلة عيد الفطر. وفي صباح العيد تم الإفراج عن الإخوة الثلاثة الذين نقلوا معي، وكانت الإشاعات قد تحدثت عن تلك الإفراجات مسبقاً، ولا شكَّ أنَّ أهلي - كأهالي المعتقلين الآخرين- تعلقوا بهذه الإشاعات، وبنوا عليها الآمال. لكن السلطة الحاقدة خيبت أمل أهلي، فبقيت بعد هذا التاريخ ثمانية عشر شهراً أخرى!. لقد امتدت فترة السجن إلى أربع سنوات، قضيت أكثر من نصفها في فرع الحلبوني.

-٣-

كان السجن لي مدرسةً عرفت فيها نفسي، وعرفت شرائح مختلفة من البشر: من الإخوان، ومن الإسلاميين الآخرين (وبخاصة أعضاء حزب التحرير)، ومن الفلسطينيين (من فتح والجبهة الشعبية وغيرهما)، ومن البعثيين الذين انشقّ عنهم حافظ، أقصد اليمينيين جماعة أمين الحافظ، واليساريين جماعة صلاح جديد... فضلاً عن أفراد من هنا وهناك،

من التنظيمات الكردية، ومن أصحاب انتماءات مختلفة، ومن أناس غير سوريين: عراقيين وأردنيين وبريطانيين وكنديين وإسبانيين...

وعرفت فيها أزلام السلطة وأجراءها، من ضباط مخابرات، ومحققين وجلادين... وضباط شرطة وأفراد شرطة (في سجن حلب المركزي)...

-٤-

الصفة العامة لمعظم ضباط المخابرات والمحققين الذين عرفتهم، أنهم قليلو الذكاء، ضعيفو الضمير، محدودو الثقافة، جفاة الطبع، منحدرو الأخلاق... ولا تخلو القاعدة من شذوذات يسيرة، فقد تجد الذكي ولو نسبياً، ومن عنده بقية من أخلاق!.

أما السجانون والجلادون فيتّسمون عادة بالغباء والمحدودية، وبضعف الثقافة بل الأمّية أحياناً. ويصطرع في نفوسهم أثر التربية البيتية، والانتماء إلى شعبنا الطيب، والجهل، والتوجيهات الحاقدة اللئيمة التي يتلقّونها من رؤسائهم...

أما المعتقلون فهم يمثّلون شرائح متباينة جداً. وكثير منهم ينحاز، بعد أن يرى الظلم والسوء، إلى دينه وفطرته، ويتوجّه إلى الله بالعبادة...

ومعظم الأجانب الغربيين الذين كنا نلتقيهم في السجن، يُعربون عن نيّاتهم بفضح "النظام" الذي سجنهم، وشَرْح الظلم الذي شاهدوه أو طُبّق عليهم، أمام حكوماتهم وأمام وسائل الإعلام، وأمام منظمات حقوق الإنسان!.

-٥-

وقد حاولت تحرّي الدقة والموضوعية فيما كتبت، ولم أمتنع عن ذكر إيجابية رأيتها من محقق أو سجّان، على قلّة ما رأيت... فالنفس البشرية لا تتمحّض للشر، لكنّ شرّها يتكاثر أحياناً ويطغى حتى يكاد يغطّي كل خير!.

وقد تخونني الذاكرة فأهمل كثيراً من التفصيلات.

ومع أني تحرّيت الكتابة بالعربية الفصيحة، فقد تساهلت مرّات بذكر كلماتٍ لها وقع في النفوس، عاميةٍ أو أعجمية!.

-٦-

ولا يفوتني أن أذكر أنّ الظلم الذي لقيته، على فداحته، لا يُعَدُّ شيئاً أمام الحقبة التي كانت بعد عام ١٩٧٩، لا سيما في سجن تدمر، وفي السجون المؤقتة التي أنشئت في مدرسة المدفعية بحلب، أو في حماة، في شباط ١٩٨٢...

كما أنّ سجن المخابرات العسكرية في حلب، حي السريان، وسجن فرع فلسطين في دمشق، وسجن الآمرية الجوية... تعجّ بألوانٍ من الظلم والقهر والتعذيب البدني والنفسي لا يعرفها إبليس!.

ومن المناسب أن نشير إلى بعض الكتب التي تتحدث عن حقبة ما بعد ١٩٧٩، بما فيها حقبة ما بعد ٢٠٠٠م!. فمن هذه الكتب: "تدمر شاهد ومشهود"، "خمس دقائق وحسب" و"تدمر.. المجزرة المستمرّة" ومقالات الرياضي العراقي البريطاني هلال عبد الرزاق علي في جريدة القدس العربي، ومقالات الدكتور هشام الشامي على المواقع الالكترونية وغيرها.

لقطات من البداية

كانت البداية في يوم السادس من نيسان عام ١٩٧٣م، في يوم جمعة وقت أذان العصر، وكنتُ وقتها في ورشة بناء صوامع الحبوب بجوار مدينة الرقة، حيث كنت المهندس المسؤول عن ذلك الموقع من جهة الدولة.
توقفت بجواري سيارة (لاندروفر) وترجّل منها ثلاثة. أحدهم هو أكبرهم سناً، في مطلع الأربعينيات من عمره، منظره مقبول، أسمر، ذو كرش، لباسه أنيق... قدّم لي نفسه أنه ضابط مخابرات. عرفتُ فيما بعد، أنه عبد القادر حيزة، المحقق. وفهمت أن الاثنين الآخرين مرافقان، وأحدهما هو سائق السيارة.
بادر المرافقان وقالا لسيدهما: سيدي، أنفتّشه؟ قال: "لا. لا حاجة. الإخوان المسلمون لا يحملون سلاحاً".
إذاً جاء يعتقلني بصفتي عضواً في جماعة الإخوان المسلمين، وهو يشهد أن الإخوان المسلمين لا يحملون سلاحاً. وبالمناسبة فقد بقيت معتقلاً حتى يوم ١٩٧٧/٤/٧ أي مدة أربع سنين كاملة!.
دخل إلى البيت الذي أسكنه في الورشة، ولم يكن تفتيش هذا البيت عملية معقدة، فالبيت شبه فارغ! لكنه وجد على الطاولة دفتر جيب صغيراً. وضعت قلبي على كفّي، كما يقال، حذراً من أن يسألني عن حل ألغاز ما في الدفتر، فقد كان فيه مواعيد لقاءاتي التنظيمية، مكتوبة برموز وأرقام، لا يحلّها غيري.
قلّب أوراق الدفتر ثم رماه، وقال: إنه دفتر حسابات!.
قال لي: إنك مطلوب إلى فرع المخابرات في حلب، للتحقيق معك في بعض الأمور.
قلت: لكنّ معي زوجتي وطفلتي، ولا يمكن أن أتركهما هنا، ألا يمكن أن

آخذهما في السيارة إلى حلب؟ قال: لا، ولكن نوصلهما إلى منطلق سيارات "التاكسي" المسافرة إلى حلب!.

في منطلق السيارات وجدنا سيارة تحتاج إلى راكبين، دفعت أجرة راكبين حتى لا يضايق زوجتي أحد، وأوصى المحقق "حيزة" سائق السيارة: "هذه السيدة ستسافر معك إلى حلب، لسبب يهمّ الدولة. عليك أن توصلها إلى بيت أهلها. وإذا أصابها مكروه فلا تلومَنّ إلا نفسك! أسمعت؟!".

قال السائق: نعم سيدي. إنها أمانة في عنقي.

وتأكيداً لجدّية الأمر فقد سجّل حيزة رقم السيارة على ورقة عنده.

وقد بقيتُ في قلق وتوجّس مع هذا كله، فليس من شأن زوجتي أن تذهب في سيارةٍ مع سائقٍ غريب ضمن مدينة حلب نفسها، فكيف بسفرها مسافة ١٥٠ كيلومتراً؟!. ولكن لم يكن أمامي خيار آخر، فأنا معتقل بيد من لا يرحمون. سلّمتُ الأمر إلى الله، وقرأت بعض الآيات الكريمة والأدعية، رجاء أن يحفظ الله الزوجة وطفلتها.

مضت بنا السيارة إلى فرع مخابرات "الطبْقة". بقينا هناك مدة ساعتين أو أكثر، وُضعت فيها في غرفة وحدي. أما المحقق فقد قعد في مكان آخر، وأظنّه كان يتسامر مع زملائه.

مرّة أخرى مضت بنا السيارة نحو حلب. دخلنا فرع المخابرات العامة هناك، الذي يسمى أحياناً (بناية العدّاس) أو (مدرسة نابلس) إذ يقال: إن المبنى كان يملكه أحد الأثرياء من آل العدّاس، وصادرته الدولة، وجعلته مدرسة باسم ثانوية نابلس، ثم وجدتْ أن الأنفع للمجتمع أن يصير فرعاً للمخابرات فصار!.

يبدأ الدخول بدرج نازل إلى القبو، بنحو عشرين درجة متوالية، نصفها تقريباً يقع خارج باب القبو ونصفها الثاني بعد الباب.

ينتهي الدرج ببهو صغير فيه طاولة صغيرة، خلفها كرسي، يجلس عليه

عادة أحد السجانين، وفيه كذلك سرير ينام عليه السجّان المناوب.
في هذا البهو كان في استقبالي مجموعة من "الأشخاص" بعضهم ممّن (إذا رأيتهم تُعجبك أجسامُهم) وبعضهم ليس كذلك.
كان أجملُهم هيئةً: قصيرَ القامة نسبياً، أبيض البشرة، أنيق الملبس، لكنه، كما تبينّ بعدئذ، أكثرهم حقارة وسفاهةً، وأسوؤهم أدباً... إنه رئيس الفرع م خير دياب، وكان برتبة نقيب. ولأن رئيس الفرع موجود، فطاقم الجلاوزة كله موجود، وسوف يتبارى في إثبات الجدارة أمام "المعلم".
وكان الثاني طويل القامة؛ يلبس بدلة رمادية مخططة، هيئتهُ تشير إلى أنه من أصول بدوية، وحين نظرت في وجهه بادرني بالكلام: ألا تعرفني؟! قلت: لا أدري، ربما تقابلنا مرةً ما! قال: أنا أراقبك منذ ستة أشهر، وأعرف عنك كل شيء: من زارك في هذه المدة، ومن قابلك، ومن زرتَ أنت...
تشكّكتُ في كلامه، وتبينّ لي فعلاً أنه كان يكذب عليّ، كما هو شأن هذا الصنف من الناس، ليوحي إليّ أنه لا فائدة سن إنكار شيء!. فكل شيء عنك معروف لدينا.
وعرفت بعدئذ أنه الملازم أول محمد سعيد بخيتان، نائب رئيس الفرع (الذي أصبح في عهد بشار أسد عضو قيادة قطرية).
وكان في البهو "شخصان" آخران، وهما السجّانان: شيخو وأبو حميد.
قام أحد السجّانين بتفتيشي، صادر مني "ساعة اليد" والمفاتيح، والمشط والهوية... وسئلت عن معلوماتي الشخصية، ثم قادوني إلى غرفة التحقيق.
في الحقيقة هما غرفتان. غرفة خارجية، يُدخل إليها من ممّر طوله نحو ٦ أمتار وعرضه حوالي ١,٤٠ م، والغرفة نفسها كبيرة نسبياً، أبعادها حوالي ٤,٥× ٥,٥م، وهي غرفة جرداء، ليس لها أي نافذة، وليس فيها أي شيء من قطع الأثاث، سوى دولاب، أي إطار سيارة ركاب، وحزمة من الخيزرانات، وجهاز لاسلكي صغير علمتُ بعدئذ أنه يستعمل في التعذيب بالكهرباء!.

وهذه الغرفة هي غرفة التعذيب.

أما الغرفة الثانية فهي غرفة التحقيق، وهي غرفة أصغر من الأولى، يُدخل إليها من الغرفة الأولى. أبعادها حوالي ٢,٥×٣م، ولها شباك مقابل بابها. فيها طاولة مكتب، وعلى الطاولة جهازان للهاتف.

كان النقيب دياب هو الذي باشر التحقيق، وكان يناوب بين القعود خلف الطاولة، وبين مغادرة الطاولة لأجل "القيام بالواجب". أما الآخرون فكانوا يكملون الدور، فالجلادان بأيديهما الخيزران، فهما لا يقصّران في الضرب اللاسع، والصفع والشتم والتهديد، وبخيتان يرمي بعض الكلمات بين حين وآخر من أجل المزيد من الاستدراج.

وكان النقيب أفحشهم بذاءةً، وأكثرهم قسوة. لكنه لم يكن أكثرهم ذكاء.

وراحوا ينقّلونني بين غرفة التعذيب وغرفة التحقيق، وقد جرّدوني من ملابسي، إلا ما يستر العورة الغليظة، ويسلّطون عليّ أنواع التعذيب من لسعات الخيزران على أنحاء جسمي كافّة، وهزّات الكهرباء الفظيعة.

أما لسعات الخيزران فقد كانت تؤلمني مثل الكيّ بالنار، وقد تكسّرت بين أيديهم مجموعة من الخيزرانات، فكانوا يستبدلون بها خيزرانات جديدة، وأشهد أنهم لم يطالبوني بثمن الخيزرانات التي تكسّرت على جسدي.

لقد سال الدم من أماكن مختلفة، جرّاء الضرب المبرّح، وكانت بعض الضربات قوية فخلّفت خطوطاً أو بقعاً داكنة، بعضها بقي ظاهراً على ساقيّ أو على ظهري أكثر من سنة. وبعضها ما يزال ظاهراً، بعد مضيّ أكثر من ثلث قرن!!.

ولا أدري عدد الضربات التي تعرّضت لها، لكنني، ومن خلال خبراتي التي كوّنتها فيما بعد، أقدّر أنها لا تقل عن ثلاثمئة!.

أما الصعقات الكهربائية فهي شيء مختلف. يمسك الطاغية الكبير جهاز اللاسلكي بيده، ويساعده الجلاد بأن يلفّ مقدمة كل من السلكين المتصلين بالجهاز، حول أصابع قدميّ. وللجهاز ذراع صغيرة ومقبض، فإذا

أدار الطاغية الذراع انطلق تيار كهربائي، وانطلق معه صوت الضحية بصراخ قوي، من غير شعور أو قصد.

وقد وجدت من نفسي، ومن غيري في أوقات أخرى، أنّ الضحية قد يملك التحمل وضبط النفس وكتمان الصوت أمام لسعات الخيزران مع ألمها الشديد، أمّا عند التعرّض لهزّات الكهرباء فلا يملك أحد كتمان الصوت، فإن صراخَه قسري، لا إرادة له به.

ومعظم ما يتلقّاه الضحية من تعذيب، بالخيزرانة أو بالكهرباء، يتلقّاه وهو محشور في الدولاب، فخذاه ملتصقتان ببطنه، والدولاب هو الذي يشدّ الفخذين إلى البطن، والضحية ملقى على الأرض، وتتناوشه اللسعات والضربات والهزّات الكهربائية من كل جانب، ويتلقى الشتائم والبذاءات من أشاوس البعث القائد.

وفي حوالي الساعة الثانية ليلاً أو الثالثة غادرني فريق التحقيق، وبقيت في غرفة التحقيق عارياً كما ذكرت (أو شبه عارٍ). لكنهم قبل أن يغادروا طلبوا مني أن أبقى واقفاً على قدمي ولا أجلس.

وكيف عرفتُ الوقت، ولو بشكل تقريبي؟! لقد سمعت أذان الفجر، الذي جاءني من أحد المساجد القريبة نسبياً، عبر نافذة غرفة التحقيق. وحين سمعته كان قد مضى على ذهاب "الفريق العتيد" نحو ساعتين.

وفي الصباح، ربما في الساعة الثامنة جاءني الجلاد أبو حميد فرآني قائماً، وآثار التعذيب تملأ جسدي، ولعله أشفق على حالي. قال لي: بعد قليل سيأتي المحقق، فإذا سألك عن حالك قل له: "إن السجّان لم يتركني. ما زال يذهب ويأتي ويضربني". فعلمتُ أنّ أبا حميد هذا مجرد موظف لا يهمّه أن يعذبني، بل يريد أن يكسب رضا "أسياده" بأن يظهر أمامهم ظالماً قاسي القلب..

ومرّ النهار ولم يحققوا معي بل نقلوني إلى إحدى الزنازين، وحين طلبتُ

ثيابي التي بقيت في غرفة التعذيب فأحضروها إلي.. ولكن بعد أن سرقوا بعض ما فيها من نقود، فقد كان في أحد الجيوب راتبي الذي قبضته قبل أيام قليلة!.

ولكنّ التعذيب لم يتوقف في الزنزانة، بل أخذ شكلاً آخر، إنه التعذيب النفسي: إهانات وتحطيم للكرامة. فقد أوجبوا عليّ أن أبقى واقفاً على قدم واحدة! وأحمل الدولاب ذاته، أضمّه في رأسي وأسنده على كتفي.

وحتّى يطمئنّ السجّان إلى حُسْن التنفيذ، ويزيد في العذاب النفسي، كان يمرّ بجانب الزنزانة بشكل غير منتظم: كل دقيقتين، أو كل ربع ساعة، فيفتح "الطاقة" ليراني في الوضع النظامي، أو يكتفي بالضرب على الباب المعدني ضربة قوية لأرتعب من مفاجأتها. يستخدم في الضرب على الباب قبضة يده، أو حذاءه، أو الخيزرانة....

لقد مضى عليّ أكثر من ٢٤ ساعة في الاعتقال، ولم يدخل إلى جسمي لقمة طعام أو نقطة ماء، بل اكتفوا بالغذاء المذكور: الضرب والشتم والصدمات الكهربائية...

أما في المساء، فكما كان يقول أحد السجناء: جاء الليل وجاء الويل، فقد عاد النقيب والجلادان لإقامة "حفلة تعذيب" جديدة، لاستكمال التحقيق، لكن هذه الحفلة.. والحق يقال.. كانت أخفّ وأقصر من الحفلة الأولى، فقد كانت مدتها حوالي ثلثي مدة الحفلة الأولى، وكان عدد لسعات الخيزرانات، وصعقات الكهرباء كذلك حوالي ثلثي ما حوته الحفلة الأولى.

وحتى لا يظنّ أني لم أذق الطعام بعد، أذكر أنه بعد مضيّ الأربع والعشرين ساعة الأولى، كنت في الزنزانة الصغيرة، وكان موقعها استراتيجياً، فهي أمام دورة المياه تماماً! ولا يفصل بينهما سوى ممر بعرض متر واحد، فكان السجناء جميعاً يمرّون أمامها عند قضاء الحاجة، وكان يسمح لهم بذلك

مرتين يومياً، وكان السجن بكامله محجوزاً لحسابنا في تلك الأيام نحن أبناء جماعة الإخوان المسلمين، وقد تمكن أحد الإخوانِ من استغفال السجّان الذي يراقب الحركة، ففتح عليّ "الطاقة" ورمى إلي برغيف وقطعة جبن.
وحين جاء دوري لقضاء الحاجة ثم استعمال المغسلة، تمكنت من شرب بعض الماء.
لقد كانت الأسئلة التي يوجهها المحقق إلي تدور حول التنظيم: متى دخلت التنظيم؟ ما موقعكَ فيه؟ من نظَّمك؟ ما بِنْيةُ التنظيم وما هيكليّته؟ ما المناهج التي تدرسونها؟!،،،
فضلاً عن عُروضٍ "للتعاون" مع أجهزة الأمن "لمصلحة الوطن"!.

وسرقوا بيتي

هل فهمتم من العنوان أنهم سرقوا بعض محتويات بيتي، أو أنهم سرقوا بيتي كله واغتصبوه! كلا الفهمين صحيح. فمرّة فعلوا هذا، ومرة فعلوا هذا. ولا يخفى عليكم من هؤلاء الذين سرقوا؟ إنهم هم، وليس غيرهم!.

في شهر آذار من عام ١٩٧٣ كان عملي قد استقرّ مهندساً في مؤسسة المشاريع الكبرى –مديرية صوامع الحبوب– موقع حلب، فجاء قرار بنقلي إلى الرقة لأكون مسؤولاً عن موقع الصوامع هناك، الذي هو في طور التأسيس.

وفي الأيام الأخيرة من الشهر المذكور التحقت بعملي هناك، ونقلت معي زوجتي وطفلتي ذات الأشهر الثلاثة. وحتى لا يبقى بيتي فارغاً، أعطيت مفتاحه لأحد فتية الحي، من روّاد المسجد، حتى يتردّد على البيت، أو يستخدمه في تحضير دروسه المدرسية...

وما هي إلا أيام، حتى بدأت الاعتقالات بمناسبة الاحتجاجات الشعبية على دستور حافظ أسد. ولم يكن أمام الجماهير المحتجّة إلا وسائل بسيطة، وطرق ضيّقة، للتعبير عن احتجاجها. فقام بعض الشباب بكتابة شعارات على جدران الشوارع تندّد بذلك الدستور، مثل: "لا، للدستور الظالم". وألقي القبض على أحدهم، وتحت التعذيب اعترف على بعض من له به علاقة، وبعض هؤلاء اعترفوا على علاقة بي، ليس في شأن تلك الكتابات، ولكن بشأن التنظيم في جماعة الإخوان المسلمين!.

جاءت دورية مخابرات لاعتقالي، لكنني كنت -كما ذكرت أنفاً- قد انتقلت إلى الرقة، وكان في البيت الفتى الذي سلّمته مفتاح البيت، وبعض أصدقائه، وأستاذ لهم يعطيهم درساً خاصاً في مادة اللغة العربية.

وحتى لا تعود الدورية خائبة، فقد اعتقلت كلٌ من في البيت، وسكنت البيت نفسه، وجعلته مصيدة، تعتقل كلٌ من يطرق بابه!. واستمرت على ذلك أسبوعين أو يزيد.

وعلى إثر مجيء الدورية إلى بيتي شُكّلت دورية أخرى فسافرت إلى الرقة، واعتقلتني هناك.

بعد مضي نحو ثلاثة أشهر، سمحت إدارة فرع مخابرات حلب، حيث كنت معتقلاً، بأن تزورني والدتي. وفي الزيارة أخبرتني، أنّ عناصر المخابرات الذين احتلوا البيت مدة أسبوعين سرقوا منه ما خفٌ حمله، وغلا ثمنه، ومن جملة ذلك بعض القطع الذهبية، وبدلة جديدة لي، لم أكن لبستها إلا مرة واحدة، وأشياء أخرى.

شكوتُ إلى المحقق ما فعلته الدورية، فنفى أن يكون عناصرها قد سرقوا شيئاً، وقدّم دفاعاً قوياً عنهم. قال: وماذا يفعلون بالذهب؟! وما يفعلون بالبدلة؟! وماذا يستفيدون من تلك المسروقات؟!! وانتهى التحقيق.

وفي صيف عام ١٩٨٠ جاءت دورية لاعتقالي من بيتي. ولم أكن فيه! فتواريت عن الأنظار، ثمّ تمكنت من الخروج من سورية. وبقي البيت مغلقاً، إلى أن وَضَعَ مساعد في المخابرات العسكرية يده على البيت فاحتله، وسكنه "مفروشاً" هو وأسرته الكريمة!.

لم يكن هناك أمرٌ بمصادرة البيت. ولكن متى كانت العصابات تنتظر الأوامر؟! إنها شريعة المافيا. فقد استباحه ذلك "العنصر" واتخذه مسكناً لأسرته.

وعَلِمَ أخي "مطيع" –رحمه الله- بالأمر، فاحتال على طريقة للسؤال عن البيت. وذهب إلى المخابرات ليقول لهم: إنّ أخي مسافر خارج القطر، وبيته فارغ، ولكننا وجدنا حَرَكَةً في البيت، وإشعالاً للأضواء فيه، فلعلّ بعض "الحرامية" قد فتحوا بابه واغتصبوه!.

فقالوا له: "لا. إنه في أيدٍ أمينة. إنّ بيت أخيك هو بيتنا، ونحن نحافظ عليه. ولا حاجة لأن تسأل عنه مرة أخرى. أفهمت؟!".

وتذكّرتُ الأيدي الأمينة التي كانت تحتفظ بثمن النفط السوري كله مدة ثلاثين سنة كاملة، فهذه الأيدي من تلك. قطع الله هذه الأيدي وتلك!.

أبو غياث

إنه نفسه، المحقق عبد القادر حيزة، الذي كان رئيس الدورية التي جاءت لاعتقالي.

متوسط الطول، ذو كرشٍ كبيرة، أسمر اللون، شعره أسود خفيف، يتأنق بملابسه ليبدو منظره مقبولاً.

وهو يحوز درجة متقدمة في الغباء وضعف الثقافة!!

قد يتصنّع اللطف أحياناً، لكن طبعه سرعان ما يخونه، فتبدو فظاظته المنكرة.

وولاؤه للسلطة التي يخدمها كولاء كثيرين: متسلّق، متكسّب، مرتزق، يروقه ممارسة التعذيب على الآخرين ليستكمل التحقيق، ويرضي مشاعره الساديّة. وهو يلوّن في الأساليب، بين استعمال الخيزرانة، والصعق الكهربائي، واللكمات والشتائم...

لكنه إذا شعر أنه استكمل التحقيق وختمه، ثم ظهرت له معلومة جديدة تقتضي منه إعادة النظر في النتائج، فإنه يتقاعس، ويكتفي بأن يأخذ المعلومة لنفسه!.

في أثناء التحقيق معي في اليوم الأول، حين كان النقيب دياب يتولى رئاسة فريق التحقيق، تدخل أبو غياث ليوجه إلي تهمة غريبة تنمّ عن ثقافته الأمنية والدينية والأدبية! قال لي: أنت المسؤول عن توزيع الكتب في جماعة الإخوان المسلمين!. قلت له: كيف ذاك؟ ليس عندنا مثل هذه الوظيفة. نحن نشتري الكتب من السوق، أو من "السوق السوداء" وندفع ثمنها من جيوبنا... قال: إذاً لماذا عندك عشر نسخ من كتاب سيد قطب، هذا الذي يبحث في القرآن (وبدأ يتلعثم ليتذكر اسم الكتاب) فقلت له: تقصد: "في ظلال القرآن"؟ قال: نعم، هذا الكتاب عندك منه في البيت عشر نسخ، وقد فتشنا بيتك وأخذنا إحدى النسخ!. قلت له: إنها ثمان وليست عشراً!. قال: لتكن ثمانياً؟ لماذا هذا العدد كله؟! قلت له: إنه كتاب واحد في ثمانية مجلدات! ألا تعلم أن هناك كتباً كبيرة تضمّ عدداً من المجلدات؟!

وفي اليوم الثالث، بعد حفلة التعذيب الثانية، قام أبو غياث هذا بجولة من التحقيق، فلم يقصّر في التعذيب والإيذاء. فعلى الرغم من أن الحفلتين

قد استنفدتا معظم ما يمكن أن يأخذوه، فإن بعض الصعقات الكهربائية، وبعض الخيزرانات، وما يرافق هذه وتلك من لكمات وشتائم... هي من لوازم التحقيق!.

ولقد كنت بالفعل ناشطاً في التنظيم قبل دخولي السجن، ومعظم الإخوة المعتقلين يعرفونني، وقد كنتُ سبباً في تنظيم عددٍ منهم... وحين شاع في غرف السجن وزنزاناته أنني معتقل معهم، صار كلّ أخ منهم إذا سئل: من الذي نظّمك؟ أشار إليّ، سواء أكنتُ أنا الذي نظّمه أم لا، وذلك حتى لا يوقعوا إخوة آخرين ويتسببوا في اعتقالهم. وقد سرّني هذا السلوك الذكي منهم، ولكن المحقق أخذ عني فكرة -بسبب ذلك- هي أنني نظّمت عدداً هائلا من الشباب.

كان إذا أراد أن يتثبت من إحدى المعلومات، أو يحل إحدى معضلات التحقيق يأتي إلى زنزانتي ليسألني، فأحاول أن تكون إجابتي "محسوبة"!.

جاءني مرة ليسألني أتعرف فلاناً (سأسمّيه عبد الله المهندس)؟. كان السؤال صاعقاً لي. فهذا الأخ ليس من حلب. وإذاً كيف وصل الاعتقال إليه، وكيف توقّع المحقق أن يكون عندي علمٌ به. وكان لا بدّ من الإجابة سريعاً. وبما أنه سأل عن اسم حقيقي فهم يعرفونه. ولكن هل يعرفون أنه منظّم؟!..

دارت مثل هذه الأسئلة في ذهني، ربما في ثانية واحدة. قلت للمحقق: نعم أعرفه!. قال لي: هل هو من الإخوان؟! قلت: وما يدريني؟!.

اكتفى بهذا الجواب وذهب. أما أنا فقد بدأت أفكّر إلى أيّ مدى امتدّت الاعتقالات؟ وكيف تمّ الربط بين المعلومات في محافظات متعددة؟!.

بعد حوالي ساعتين، جاءني المحقق إلى زنزانتي (أمام المرحاض) هو ومحمد سعيد بخيتان، وكانا، على غير العادة منشرحين يبتسمان لأمر ما. قال: قلتَ لي إنك لا تعرف هل عبد الله المهندس منظّمٌ أم لا؟! لقد اعترفَ

أنك أنت الذي نظمتَه!. والله إن الطير الذي يطير فوقك في السماء تنظّمه! ولو أنني ترددتُ على بيتك مرتين لنظّمتني! قلت له: لا، والله! فابتسم هو وصاحبه وذهبا، وذهبتُ مثلاً. فقد كان بعض الإخوان في الزنازين المجاورة يسمعون الحوار، فكانوا بعدئذ يصفونني بأنني أنظم الطير الذي يمرّ فوقي في السماء!.

والمحقق لم يسألني كيف نظّمته ومتى؟! ولو سألني لأحرجني. لقد نظّمته بالفعل، ولكن كيف سأذكر له مناسبة ذلك، وتكون متطابقة مع ما ذكر أخي عبد الله المهندس؟!..

بعد أيام حدث لقاء بيني وبين الأخ عبد الله وسألته عن سبب اعتقاله، وعن اعترافه بالتنظيم... فذكر أنه كان يؤدي خدمة العلم، وأن الدورة التدريبية العسكرية كانت في مدرسة المشاة وقد تعرّف إلى بعض إخواني من الحلبيين فدلّوه على بيتي، وجاء ليزورني فكان عناصر المخابرات قد احتلّوا البيت فاعتقلوه، وحين أتوا به إلى السجن وعلم بوجودي اعترف إنني نظّمته، لكنه ذكر لهم مناسبة لتعرفي عليه، وتنظيمي إياه، لا يمكن أن تخطر ببالي فيما لو سألني المحقق أن أتحدث له عن ذلك.

وبعد مضي حوالي ثلاثة أسابيع على الاعتقال، وكان التحقيق قد انتهى (نسبياً) وبدأنا نشعر بشيء من الاستقرار، جاء أمرٌ من رئيس الفرع بحلق اللحى للإخوة الملتحين، وكان معظمنا كذلك.

لم تكن هناك جدوى من المقاومة والامتناع. جاؤوا بحلاق فحلق لنا اللحى، ورحنا ينظر بعضنا في وجوه بعض، ونتذكر قول السيدة عائشة الصديقة التي كانت تحلف: "والذي زيّنَ الرجال باللحى، والنساء بالشعور". لقد ذهبوا بهذه الزينة، قاتلهم الله.

ومرّ بنا المحقق ووجَدَنا جميعاً حليقي اللحى، فتبسّم ابتسامةً صفراء وقال: أمرُ حلق اللحى لم يصدر من عندي، لقد صدر من رئيس الفرع. لو كان

الأمر إليّ لأمرتُ بحلقها منذ اليوم الأوّل!.
لقد ظننّا أن الغبي يريد أن يعتذر لنا، وإذا هو يعبرٌ عن لؤمه وحقده على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم!.
كان المحقق يعود إلينا، أو يطلبنا إلى غرفة التحقيق بين الحين والآخر كلما قرأ الملف الخاص بكل منّا، ووجد فيه بعض الثغرات... لكنه، بعد هذا كله، لم يستطع أن يكمل الصورة. فهو لم يعرف، طوال خمسة أشهر، ما معنى المكتب التنفيذي، وما معنى مجلس الشورى، وإدارة المركز.... وكان إذا سألني، أستجلي من صيغة سؤاله التصور الذي عنده، فأعلم أن الصورة التي عنده -على بساطتها- مضطربة، فأعمل على تثبيت الاضطراب أو زيادته!.

أبو سعيد بخيتان

شاب في الثلاثينيات من عمره، طويل القامة، حنطي اللون، رتبته ملازم أول، ووظيفته: نائب رئيس فرع المخابرات العامة بحلب.
هكذا كان يوم دخلتُ المعتقل في نيسان ١٩٧٣، أما حين أطلق سراحي بعد أربع سنوات فقد كانت رتبته نقيباً أو رائداً، وكانت وظيفته رئيساً للفرع المذكور. وهو الآن عضو في القيادة القطرية، ورئيس لمكتب الأمن القومي!.
إنه اللواء محمد سعيد بخيتان.
من مهماته -يوم كان نائباً لرئيس الفرع- صناعة العملاء، وشراء الذمم والضمائر، يستخدم في ذلك التهديد والإغراء، وبعض الفكاهة، ويساعده في ذلك ذكاؤه. ويمارس التحقيق مع المعتقلين أحياناً.
وليس بالضرورة أن يكون حادّ الذكاء، إنما إذا قورن بمعظم من نعرف من ضباط المخابرات السورية... كان من أذكاهم.

والحقيقة إنه يصعب على الذكي أن يعمل في مثل ذلك السلك، فالمهمات المطلوبة منه تحتاج إلى ذكاء، نعم، لكنها كذلك تتناقض مع الذكاء، بل مع العقل، إذ كيف يطيق الذكي أن يَسْجن ويُعذّب إنساناً بتهمة أنه يفكر تفكيراً منطقياً، ويعتقد اعتقاداً سوياً، ويعارض السلطة الغاشمة بلسانه أو بقلمه، ويرفض أن يهتف أو يصفّق للطاغية، أَقْصِدُ: للقائد الملهم بطل الجولان!.

وصاحبنا أبو سعيد يدرك منذ الأيام الأولى، تلك البنية الطائفية للنظام وفشوّ المحسوبيات والرشاوي...

ومن خلال التحقيق الذي يمارسه أحياناً، ومن خلال الجلسات التي يحاول بها شراء الذمم.. يسرِّب كلمةً هنا، وكلمة هناك.. لتفهم أنه مخلص لمهنته، لكنه عارف بمفاسد الأوضاع القائمة في السلطة، عالمٌ بأنّ السلطة تتربّص بالإسلاميين لتُوجِّه إليهم ضربةً تعيدهم إلى الصفر.

لقد كانت المناسبة التي اعتُقِلتُ بسببها هي أنّ حافظ أسد، الذي قام بانقلابه على رفاقه في ١٦ من تشرين الثاني عام ١٩٧٠م، وبدأ يسيطر على مفاصل السلطة، ويرسي قواعد حكمه... أصدر دستوراً للبلاد عام ١٩٧٣م، وأراد أن يحمل الناس على قبوله.

وحدث، نتيجة ذلك، غليان شعبي، لا سيما في أوساط المتدينين، لإظهار الاستنكار لهذا البلاء. ولكن ماذا يفعل الناس؟! ليس عندهم صحافة أو إذاعة أو منتديات... يعبرون فيها عن غضبهم. فكل هذا، وغيره كذلك، قد استحوذت عليه السلطة التي يقول رأسها: "سنحارب أعداء الديمقراطية بمزيد من الديمقراطية"! وعلينا أن نصدّق!.

كان من الوسائل القليلة التي عبّر بها بعض الشباب عن سخطهم على هذا الدستور أنهم راحوا يكتبون علي جدران الشوارع عبارات السخط والتنديد، مثل: "لا، للدستور الظالم".

وضبط بعض الشباب بـ "الجرم المشهود" واعتُقلوا وعُذّبوا فاعترفوا على غيرهم... وكان بعضهم من الإخوان المسلمين، وتتابعت الاعتقالات بأن تُستخلص اعترافات من المعتقل تحت التعذيب، فتتّسع الدائرة ويؤتى بمعتقل جديد.

في أثناء التحقيق الثانوي معي (بعد تحقيق الليلتين الأُوليين) قلت لبخيتان: أنتم تقولون: إنكم اعتقلتمونا بسبب الشعارات التي كُتبت على الجدران استنكاراً للدستور. لكنكم لم توجّهوا إليّ أيّ تهمة بهذا الخصوص، فهل يمكن أن تذكر لي: ما دوري في مسألة كتابة الشعارات؟!.

قال: لا دور لك فعلاً، ولكننا كنا نريد "ضربكم" منذ زمن بعيد، وكنا ننتظر مناسبة، فهذه كانت "المناسبة".

إذاً فالنيّة كانت مبيّتة، وضربُ التنظيم مقصود، إنما هو انتظار المناسبة.

ومرّةً قدّم إليّ سيجارة للتدخين، فقلت له: أنا لا أدخّن، والحمد لله. ولحظت أن باكيت السجائر، عليه اللصاقة الخاصة التي تدل على أن التبغ مهرّب، فقلت له: كيف تدخّن تبغاً مهرّباً؟! (تجرّأت عليه بهذا السؤال وبما بعده لأن الجوّ كان مريحاً، يسمح بالحوار).

قال لي: أنزاود على بعضنا؟! إنه أرخص ثمناً من الدخان الوطني.

قلت: أنت رجل "أمن" ويجب أن تنظر إلى مصلحة الاقتصاد الوطني.

قال: كل الناس يدخنون منه فلماذا أمتنع أنا عنه؟!.

قلت: بإمكانك أن تضبط من يبيعه وتعاقبه وتمنع التهريب؟.

قال: أهذا الولد الذي يبيع في الشوارع من الصباح حتى المساء ليحصّل قوت أهله أو عياله.. نعاقبه ونحرمه من رزقه؟.

قلت: هذا الولد يدلُّكَ بسهولة على من فوقه ثم من فوقه، حتى تصل إلى المهرّب الكبير.

قال: المهرّب الكبير يكون مدعوماً ولا أستطيع عقوبته!

ومرة استدعاني إلى غرفته، وراح يساومني: "إذا لم تتعاون معنا فقد تبقى في السجن سنة كاملة".

كنا نتوقع أن لا يستمر اعتقالنا سوى أيام أو أسابيع. فالتهديد بالسّنة له معناه. وفي الواقع بقيت أربع سنين ويوماً!.

وقال: "سوف نسرّحك من وظيفتك".

قلت: هذا لا يهمني، فأنا مهندس، قد أحتاج إلى الوظيفة سنة أو اثنتين بعد التخرج، أما الآن وقد مضى على تخرجي ست سنوات، فالتسريح من مصلحتي.

قال: وماذا تفعل إذا سرّحناك.

قلت: يمكن أن أعمل بالتعهدات مثلاً.

قال: وهل معك رأس مال لهذا العمل؟.

قلت: لا، ولكن...

قاطعني وقال: نحن مستعدون لأن نعطيك رأس المال الذي تحتاجه، ونستطيع أن نجعل المشروع الذي ترغب بتنفيذه من نصيبك، أي نجعل المناقصة ترسو عليك.

قلت: لا حاجة لي بذلك. فهناك من يثق بأمانتي، ويستثمر أمواله عندي.

سَكَتَ قليلاً ثم قال: الوزارة الحالية توشك أن تتغيّر. وفي الوزارة الجديدة نعطيك موقع وزير الصناعة!.

قلت: وهل تتوقع أن أقبل المشاركة في وزارةٍ عندكم؟!.

وبينما هو يحدثني جاءته مكالمة هاتفية، فتكلم فيها نحو دقيقتين. وفي أثناء ذلك رحتُ أقلّب بصري في محتويات الغرفة الأنيقة. ولفت نظري جهاز راديو ذو تصميم جميل.

قال لي: هل أعجبك هذا الجهاز.

قلت: نعم، إنه جميل.
قال: نريد أن نهديك إياه، مقابل أن تعمل معنا!.
ابتسمت وقلت: لا حاجة لي به.
قال لي: هل تعشّيت؟.
قلت: لا.
قال: سأصحبك معي إلى العشاء في (البلو أب).
قلت: وما هذا البلو أب؟.
قال: مطعم ظريف. يقدّم "المشروبات". أنا أعلم أنك لا تشرب. ولكن سنقعد على الطاولة ونضع عليها بعض المشروبات، ونلتقط لك بعض الصور، ثم نعرضها على إخوانك المعتقلين ونقول لهم: انظروا، هذا معلمكم وشيخكم الذي تثقون به. إنه يقعد على مائدة الخمر.
والحقيقة إنه لم ينفذ وعده، أو تهديده هذا. إنما أراد فقط أن يعرّفني بالأساليب الساقطة التي يستخدمونها.
ومرة كان يحقق مع أحد الإخوة المعتقلين، وكان هذا الأخ قد تلقى تعذيباً شديداً فقال: أليس دستوركم الذي تعتقلوننا بحجة اعتراضنا عليه ينص على حفظ كرامة المواطن، وحُرْمة البيوت و...؟ وها أنتم هؤلاء تنتهكون ذلك كله؟! قال أبو سعيد: وهل تصدّق شيئاً مما ينص عليه الدستور؟! لقد وضعنا هذه المواد في الدستور كي نضحك عليكم فقط!.

* * *

بعد مضيّ أربع سنوات على اعتقالي، وفي اليوم الذي ابتدأت به سنة خامسة جاءت سيارة (باص كوستر) إلى سجن حلب المركزي، حيث كنت أقضي فيه الفترة الأخيرة من سجني منذ ثمانية عشر شهراً، ونقلت مع

عدد من المعتقلين إلى فرع مخابرات حلب، الفرع الذي قضيت فيه الأشهر الخمسة الأولى من الاعتقال.

دخلنا إلى بهو كبير في الطابق الأول، حيث غرفة رئيس الفرع وبعض المحققين...

اصطففنا بشكل عفوي على محيط البهو، ونحن ننتظر أن يأتي أحد المسؤولين ليلقي فينا "كلمة"! أو نستدعى واحداً واحداً إلى غرفته. ولم يطُلْ الانتظار فقد كنتُ أولَ من نودي عليه، وخرج الرائد بخيتان إلى باب الغرفة ليستقبلني!. مددت يدي لمصافحته، فمدّ ذراعيه ليعانقني ويقبّلني وقد بدا السرور على وجهه. قلت: إذاً ما زلت تذكرني! قال: وهل تشكّ في ذلك؟!.

أدخلني إلى الغرفة، وأجلسني قبالته وقال: لقد رفعت بشأنك عدداً من الكتب من أجل الإفراج عنك. وضَغَطَ زرَّ الجرس، فجاء النقيب سحلول وانحنى أمامه باحترام. قال له: أحضِرْ لي ملفَّ الأستاذ لنطلعه على الكتُب التي أرسلناها بشأنه. خبط سحلول قدمه على الأرض وانحنى من جديد وانصرف ولم يعد!!.

إنها طريقة لتمرير الغشّ والكذب، فلا ملفات ولا هم يحزنون. وبالمناسبة فإن النقيب الذي ينحني ويقف باستعداد "كالقملة المفروكة" هو ذاته كان رئيس الدورية التي أحضرتنا من سجن حلب المركزي إلى فرع المخابرات، وقد رأيته عندما جاء إلى سجن حلب، كيف كان يتصرف بعجرفة واستعلاء، ولا يعبأ بضباط الشرطة ولا بغيرهم، لأنه من خِلْقَةٍ أخرى، أو لأنَّ الدم الأزرق يجري في عروقه، دم المخابرات النبلاء!.

*　　*　　*

بقيت مسألتان مما أريد الحديث عنه بشأن "أبي سعيد":
الأولى: أنه لا يحب أن يعذِّب المعتقلين، وإذا احتاج إلى تعذيب أحدهم يأمر الجلادين بذلك ويذهب هو إلى غرفته كي لا يتمّ التعذيب أمام عينيه. ولكن هذه القاعدة ليست مطردة، فقد يمارس التعذيب بيديه، أو يمارسه الجلادون أمامه. وقد حدثني أحد الإخوة الفضلاء أنَّ أبا سعيد قد حقق معه فصفعه على وجهه صفعات، وقام بنتف لحيته بيده.
هكذا طبيعة هذا السلك. لا يمكن لمن يعمل معه أن يحافظ على قدرٍ مناسب من الطهارة. هذا إن افترضنا أن العنصر المذكور طاهر!.
الثانية: في أواخر عام ١٩٧٧، أو أوائل ١٩٧٨، حَدَثَ أنَّ مدرِّبة الفتوّة في إحدى المدارس الثانوية للبنات في حي الأنصاري بحلب، أرادت إلزام الفتيات بنزع الحجاب. ويقال: إنَّ رسالة وصلت إليها بالبريد تهدِّدها (بالضرب أو القتل، لا أدري) إذا هي عادت لإلزام الفتيات بذلك.
عُرضت الرسالة على المخابرات، وكان من الصعب، أو من المستحيل، معرفة من الذي كتب الرسالة، وكان رئيس الفرع آنذاك أبا سعيد، فقام باستدعاء بعض رجالات الحي ليحقق معهم. وكان من هؤلاء أحد الأساتذة الفضلاء.
أبو سعيد: من الذي كتب الرسالة؟.
الأستاذ: وما يدريني بذلك؟!.
أبو سعيد: سأنتقل إلى موضوع آخر. أنت تعلم أنه يحدث بين الحين والآخر عملية اغتيال لبعض رموز السلطة. فمن يقوم بذلك؟.
الأستاذ: أتسألني أنا عن هذا؟! أنت رئيس فرع المخابرات، وعليك أنت أن تعلم.
أبو سعيد: الذي ينفِّذ تلك العمليات أحد اثنين: إما واحد تابع لأحد مراكز القوة في السلطة، فلا أنا، ولا غيري، يستطيع أن يكشفه! وإما واحد: الله معه، ويرسل له ملائكة تحميه!.
ولا تعليق!.

جاسم وشيخو وأبو حميد

هذا العنوان ليس اسماً لمسلسل إذاعي أو تلفزيوني، بل هو عنوان لمسلسل التعذيب في فرع مخابرات حلب في الحقبة التي كنت فيها ضيفاً على ذلك الفرع.

جاسم هو زعيمهم. لا أعرف اسمه بالكامل. يقال إنه جاسم الطّيط، ويقال: جاسم سلطان. ولكنه يُعرف عادة باسمه: جاسم، أو بكنيته: أبي الفوز.

لقد حَرَمَهُ الله من أي جمال في خلقته، لكنه كان صاحب ذكاء خاص في اقتناص الفرص، كما سأوضّح.

وكان يتباهى في أنّه تخرّج على يديه الوزير الفلاني، أو المسؤول الكبير الفلاني، بمعنى أنهم اعتُقلوا عنده قبل تولّيهم وظائفهم، أو بعد إخراجهم منها، ونالوا من يديه القويّتين سيلاً من الخيزرانات، وغير ذلك مما يجود به حذاؤه، ولسانه كذلك!.

ويبدو أنه أطول الجلادين مدةً في هذه المهنة الشريفة، وهو يحسّ بالحرج، بل بالخوف الحقيقي وهو يسير في الشارع، أو يدخل بيته، أو ينام فيه!، أو يتسوّق لعياله... بل يخاف على أولاده كذلك... فأعداؤه كُثُر، وكل من تلقّى منه تعذيباً فهو عدوٌّ له، ولا يأمن جاسم أن ينتقم منه بعض الأعداء!.

ولهذا فقد اتخذ لنفسه "استراتيجية أخرى" وهي أن يمتنع عن اصطناع أعداء جدد بقدر المستطاع، فإذا لم يكن مضطراً فإنه يتهرب من ممارسة التعذيب المباشر، بل يدفع إلى هذه المهمة بعض شركائه مثل شيخو وأبي حميد ومحمد وردة (الحمصي)... وفوق ذلك، فإن استراتيجيته تقتضي أن يمارس النهب بأسلوب آخر. فهو يعيش في حلب منذ سنوات طويلة ويعرف كثيراً من تجارها ووجهائها... فكلما جاءه أحد المعتقلين سأله ما اسمك وما اسم أبيك، وما اسم أمك؟...

ثم يسأله: ما القرابة بينك وبين فلان، وفلان، وفلانة؟!. فإذا عرف أنَّ فلاناً عمه أو خاله أو ابن أخته أو... قام بجولة عليهم في أماكن عملهم أو بيوتهم الخاصة ليأخذ منهم الرشاوي بمقابل أن يحسن التعامل مع قريبهم المعتقل!. وقد تكون الرشوة نقوداً أو تكون ساعة يد، أو قطعة أثاث، أو بعض الألبسة... حسب اختصاص كل من هؤلاء الأقرباء.

أما "شيخو" فهو كما يقول عن نفسه: "شيخو أبو الشوارب"، أسمر البشرة، طويل القامة، له شاربان كبيران جداً، أسودان لامعان، يجعلان شكله مخيفاً.

وهو كردي، من قرية كفر جنّة، متعصب لقوميته، في لهجته العربية أثر واضح لكرديته، فهو يخلط مثلاً بين المذكر والمؤنث. وعلى الرغم من حبه الشديد للتعذيب، يراعي المعتقلين الأكراد قدر استطاعته!.

في أحد الأيام كان شيخو مناوباً، ينام في الفرع، وعند شروق الشمس سمع خبطاً على باب إحدى الغرف، واستمر الخبط حتى قام شيخو من نومه غاضباً وأتى بالخيزرانة معه ليؤدّب هذا الذي يتجرأ على إيقاظه في هذه الساعة المبكرة، وقبل وصوله راح يصرخ: من هذا الذي يدق الباب؟ فجاءه الجواب: "أس. أس" وهي بالكردية تعني: "أنا. أنا" إذاً فالمعتقل هو أخونا طالب كلية الطب مستو، فابتلع شيخو غضبه، وظهرت البسمة على وجهه، وفتح الباب للأخ مستو حتى يقضي حاجته.

وأكثر من مرة كان يؤتى ببعض المعتقلين الأكراد، وقد يؤمر شيخو نفسه بتعذيبهم، فيقوم بذلك، إذا كان المحقق فوق رأسه، لكنه في غياب المحقق كان يحاول أن يكرمهم.

ومن المآسي الصغيرة! أن عدد الملاعق التي خصصت لنا، كانت أقل من عددنا، وبعض الطعام كالمرق، يصعب تناوله من دون الملاعق. وكان أحد إخواننا في وضع صحي خاص، فكنّا نكرمه بأن نخصّص له ملعقة!. ولما

شعر شيخو بذلك، خاطبَ أخانا مستو، باللغة الكردية: لم تعطون هذا العربي ملعقة؟! وظهر الغضب المكبوت في وجه مستو، ولما ذهب شيخو قام مستو بترجمة ما سمعه!.

وشيخو هذا أميّ، لكنه يضع في جيب السترة على صدره، ثلاثة أقلام أو أكثر! وإذا رفع سماعة الهاتف، وسأله الطرف الآخر: مَنْ؟ أجاب: شيخو أبو الشوارب.

وقد قرّرت إدارة الفرع إجراء دورة محو أميّة لعناصر الفرع، ومنهم شيخو هذا، فكان يحضر الدروس لكنه لا يفهم شيئاً، وإذا أعطاه المدرّس وظيفةً ليكتبها، طلب من أحد المعتقلين أن يكتبها عنه! فإذا قدّم الوظيفة للمدرّس تبينّ له أنها ليست بخط شيخو، فيطلب من إدارة الفرع معاقبته! ثم يأخذ وظيفة أخرى، ويحاول أن يكتب، وكلما كتب حرفاً أو رقماً بدأ يشتم: "يلعن أبوه هذا أربعة" أي يلعن الله الرقم ٤. ما أصعب كتابته! (ونكتفي بهذا المثال عن أمثلة أخرى فاحشة).

وكان أحد إخواننا المعتقلين ينصح شيخو أحياناً فيقول له: يجب أن تترك الخمر، فالخمر وبال عليك في الآخرة، وهدم لصحتك!. فيقول: لا. أنا مرضت وذهبت إلى الطبيب فكتب لي في الوصفة: "واحد فروج، وواحد عرق"! قلت له عندئذ: وهل صرفتَ الوصفة من الصيدلية أم من الخمارة؟!. فنظر في وجهي ولم يُحِرْ جواباً!.

ويقصّ علينا هذه القصة التي تصور شخصيته، فيقول:

مرة طلب مني النقيب أن أعذّب أحد الموقوفين، وصعد النقيب إلى غرفته في الطابق الأعلى، فوضعتُ القيد في يَدَي الموقوف (المعتقل) حتى تقلّ حركته، وأتمكن من ضربه كما أريد. ورحت أضربه بالخيزرانة مرة، وبعصا غليظة مرةً، وبعقب الحذاء مرة ثالثة.. ولم أشعر إلا وقد انكسرت يده كسراً ظاهراً، وهو يصرخ من شدة الألم. خفت أن يعاقبني النقيب على ذلك.

فاتصلت به هاتفياً: سيدي، هذا الذي قلتَ لي: عذّبه، لقد انكسرت يده.
(وأراد المحقق أن يطمئنه فقال له): "يلعن أبوه. خلّي تنكسر إيدُه التانية":
فلتنكسر يده الثانية.
فقال شيخو: حاضر سيدي.
وراح يضرب الضحية بقسوة بالغة حتى كسر يده الثانية. استجابة لما فهمه من كلام النقيب!.
قلت لشيخو: وكيف تفعل ذلك؟! قال: النقيب ربّي! فإذا قال لي: اكسر يده فأنا أكسرها!.
ونكتفي بهذا الحديث عن شيخو لننتقل إلى الجلاد الثالث:
أبو حميد: هو الآخر كردي، لكنه يتكلم العربية بلهجة حلبية تامة، مع احتفاظه بلغته الكردية.
وهو ضخم الجسم، جميل الهيئة، قوي البنية جداً. كان يعمل -قبل دخوله هذه الوظيفة- عتّالاً ينقل الحمولات التي يعجز عنها العتّالون الآخرون!.
وإذا أُمر بالتعذيب قام "بواجبه" على أكمل وجه، لكنه إذا غاب عن أعين المحقق بدا لطيفاً مهذباً.
كان هو الآخر أمياً، فكنّا نكتب بعض الرسائل إلى أهلينا وأصدقائنا، ونرسلها مع أبي حميد، بمقابل خمس ليرات للرسالة الواحدة، ونشرح له العنوان فيوصلها بأمانة، وقد يأتينا برسالة جوابية بمقابل أجر آخر، يأخذه منهم.
وأحياناً يحمل رسالتين أو ثلاثاً في آن واحد. وبما أنه أمّي، كنا نخاف أن يخطئ فيسلّم الرسالة إلى غير صاحبها، فننبهه إلى ذلك فيقول: لا تخافوا. رسالة فلان هنا في هذا الجيب، ورسالة فلان في جيب القميص، والرسالة الثالثة في الجيب الخلفي. وبالفعل كان يصيب الهدف!.
ومرة اعتُقل مجموعة من عصابة تضم أطباء فمَنْ دونهم، من مستشفى حلب العسكري. وكانت هذه العصابة تأخذ الرشاوي من المواطن حتى

تهيّئ له سبيل الإعفاء من الخدمة العسكرية...
في أثناء التحقيق مع أحدهم يقول المحقق حيزة: ألا تخجلون على أنفسكم تأخذون الأموال من أجل تمكين المواطن من التهرب من خدمة العلم؟!.
فيتدخل أبو حميد فيقول: سيدي. هل تظن أن كل الناس مثلي ومثلك، يعيشون على رواتبهم؟!.
وقد ذكرتُ آنفاً كيف كنا ندفع الرشاوي لأبي حميد. أما الحيزة فقد كانت رشاواه بأسعار باهظة.
فقد جيء مرة بمهرّب حشيش علي مستوى دولي (يهرّب بين الدول)، وضبطت معه بضعة عشر كيلوغراماً من هذه المادّة. فلما وصل إلى الفرع ووضع تحت التعذيب، أشار بطرف عينه إلى المحقق، والتقط المحقق الإشارة، فصَرف الجلاد من الغرفة.
ثم كتب التحقيق بالشكل الذي يرضي المهرّب. ثم طَلَبَ له فطوراً -على حساب المهرّب- وهو "مامونية"، من عند المسِتّت!.
ووضعه المحقق في غرفتنا بضع ساعات إلى أن أفرج عنه. وقد حدّثنا أنه دفع للمحقق ثلاثة آلاف ليرة مقابل ذلك!.

رئيس فرع الحلبوني

عندما نُقلنا من معتقل فرع المخابرات في حلب إلى فرع الحلبوني في دمشق، في مطالع أيلول ١٩٧٣م، كان رئيس الفرع هو الرائد عارف نصر، وهو شخصية غامضة، يُدير الأمور من وراء جدار! فقد بقينا "ضيوفاً" عليه مدة تزيد على أربعة عشر شهراً، ولم نجتمع به مطلقاً. نعم قد نراه خلسة، ونحن نتسلّق أعالي النوافذ، فربما صادف ذلك دخولَه إلى مبنى الفرع عبر الساحة الواسعة، فكان دخوله يقترن "بخشوع" ظاهر من السجانين والحرس.. إذ

إن مشيته تدل على تجبّر وغطرسة.

كان يدير الفرع بشكل مباشر اثنان:

المحقق آصف يتولى أمور التحقيق والتعذيب ويُعدّ ملفّات الموقوفين، ويرفع التوصيات بشأن التوقيف (الاعتقال) والإفراج.. وهو ضابط في مطلع الثلاثينيات من عمره، محدود الثقافة والذكاء!.

والمساعد شلحة (لا أعرف اسمه الأول)، يتابع الأمور الإدارية، من دوام للعناصر، وترتيب الحراسة، وتنظيم خدمات الطعام وغير ذلك. وهو كذلك ضعيف الثقافة والذكاء، قاسٍ جَلف. قد يتولى التحقيق في بعض المسائل الصغيرة.

وهو يعترف -بلسان حاله- أن الإخوان هم الأكثر نظافة في أخلاقهم وسلوكهم.. وفي طعامهم وثيابهم ومكان إقامتهم كذلك. فإذا جاءت توصية بأحد المعتقلين الجدد، فإن المساعد شلحة يضع هذا المعتقل الجديد في غرفة الإخوان، تكريماً له، وحفاظاً على نظافته البدنية والخلقية.

ولسنا ندري شيئاً عن العلاقة بين رئيس الفرع وبين كل من "آصف" و"شلحة" هل هي علاقة مودّة، أم علاقة إدارية وظيفية فحسب.

***

في أواخر العام ١٩٧٤م حدث تغيير في إدارة الفرع، فقد عيّن رئيس جديد له، إنه الرائد محمد أحمد فتح الله.

كان متوسط الطول، أبيض البشرة، هادئاً ورزيناً.

وهو من منطقة يبرود -بين دمشق وحمص- وقد كان قبل ذلك "بمنصب القاضي الفرد العسكري".

وكان مجيئه محاطاً لدينا بالغموض، فهل سيكون كسَلَفِه أم أقلّ سوءاً، أم أشد؟!.

واستمرّ الأمر نحو أسبوعين حتى بدأنا نلحظ ثمرات التغيير:

١ - أجرى رقابة على طعام الموقوفين، فعلم أن السجانين يسرقون أفضل الطعام، ويوزعون الباقي!. وأمَر بسجن الرقيب أول أحمد سيفو بسبب سرقته بعض الطعام.

٢ - أمر بإعطاء الموقوفين حق الخروج إلى الباحة للتنفس، مدة نصف ساعة يومياً. (كنّا قبل عهده نخرج مرة واحدة في الأسبوع، لمدة عشر دقائق!).

٣ - اطّلع على ملفّات الموقوفين فوجد أنهم مظلومون، وليس هناك مسوّغ لاعتقالهم، فبدأ يرفع الكتب إلى إدارة المخابرات العامة يوصي بالإفراج عنهم. فاستجابت الإدارة فأفرجت عن بعض أصحاب القضايا الفردية البسيطة.

٤ - عندما لم تستجب الإدارة بالإفراج عن معظم المعتقلين، رفع كتاباً يقول فيه: إذا لم تستجيبوا، فلا أقلّ من أن تنقلوهم إلى سجون مدنيّة، حيث يمكن أن ينالوا بعض حقوق السجناء!. فاستجابوا لطلبه هذا، وتم نقلنا فعلاً. وكان نصيبي من سجن حلب المركزي، وخفّت بذلك وطأة السجن، فأين سجون المخابرات من السجون المدنية؟!.

لكن إدارة المخابرات العامة وجدت أنّ هذا الرجل لا يصلح أن يكون رئيساً لفرع مخابرات، فمثل هذا المنصب يحتاج إلى ظالم فظّ غليظ القلب حاقد لئيم.. فلم تمض سنة على توليه منصبه هذا حتىّ تم نقله إلى مكان آخر!.

الجلاد أبو طلال

إنه من أشهر جلادي فرع الحلبوني. لكن الاقتصار على وصفه جلاداً، لا يوضح حقيقة شخصيته، بل إن فيه بعض الظلم له.

بلغ من شهرته أنّ بعض عناصر المخابرات في فروع أخرى، غير الحلبوني،

يكنيّ أحدهم نفسه بأبي طلال تيمّناً بأبي طلال الحلبوني، ويطيل شاربيه ليكونا مثل شاربي أبي طلال.

والقلائل هم الذين يعرفون اسمه الحقيقي، فيكتفون بكنيته: أبي طلال.

اسمه هشام الشيخ نجيب، ويقال: إنّ أباه شيخٌ بالفعل، لعله إمام مسجد مثلاً. وهو دمشقي.

وشخصيته غنية بالصفات المتناقضة، أو لنقل: بالخطوط ذات الألوان المختلفة.

تلمس فيه بعض الذكاء، وبعض العنف، والقدرة الكبيرة على التعذيب مع الروح الساديّة، وبعض التديّن، وبعض الوطنية، وكراهية حزب البعث الحاكم، وفيه قوة في الشخصية، وتعدد في المواهب، وفيه بعض الطّيب، وبعض الجهل.

وحين نذكر بعض مواقفه تظهر تلك الخطوط المتباينة.

أحياناً يطلب المحقق من أبي طلال أن يقوم هو بدور المحقق في بعض القضايا الصغيرة، وعندئذ يبدو ذكاؤه، إذ يستطيع استخلاص الحقائق من دون أن يضرب المتهم صفعةً واحدة أو سوطاً واحداً. قد يهدد، وقد يمسك بيده الخيزرانة ويلوح بها ويضرب بها الأرض أو الحائط.. ويرفق ذلك باستدراج الموقوف (المتهم) حتى يستخرج منه الاعتراف المطلوب.

وإذا أصيب أبو طلال بمرض أو أصيب أحد أفراد أسرته فإنه يقول: لا شك أنّ ذلك نتيجة دعاء أحد المظلومين الذين توليت تعذيبهم.

وإذا اقتضت منه مهنته أن يعذب أحد المتدينين، ولم يكن المحقق فوق رأسه، فإنه يختار أحد المسجونين غير المتدينين فينسب إليه ذنباً ما، ويفرغ فيه شحنة الغضب، حتى إذا وجد أنّ الغضب ذهب عنه أمسك بالمتدين ليضربه ضرباً خفيفاً، أو يكتفي بتوبيخه...

وإذا جيء بموقوف من جنسيات غير سورية، وبخاصة إذا كان أوروبياً أو

أمريكياً فإنه يتفننُ في تعذيبه بمبادرة منه! وإذا سئل عن ذلك قال: إن أبناء وطننا يلقَون سوء العذاب عندنا، فهؤلاء أولى!.

ومرة يخطر في باله أن يصلّي لله تعالى، فيقف في باحة السجن ويصلي علناً، لا يخاف أن يراه أحد!.

ومرة يعلن إفطاره في رمضان، فيضع -في باحة السجن كذلك- كرسيين متقابلين، يجلس على أحدهما، ويضع الطعام على الآخر ويأكل!.

وهو صاحب "مَقْمَرة" أي مقهى للعب القمار، يعمل فيها خارج أوقات الدوام، ويشغّل فيها بعض الشباب الأشقياء، ويستغل وظيفته في حماية المقمرة والعاملين عليها.

ومرة كان في أحد النوادي الليلية (الكباريهات) واشتبك مع عناصر من سرايا الدفاع، لا أعرف سبب الاشتباك، لكن عناصر المخابرات (من روّاد الكباريه) وقفوا مع أبي طلال، ضد عناصر السرايا (من روّاد ذلك المكان) وتبادلوا إطلاق النار على الخفيف فأصيب بساقه، ونقل إلى المستشفى، وبعد الشفاء بقي يعرُج عرجاً خفيفاً، ولعل هذا العرج استمرّ معه وشكّل عاهة دائمة.

وكان يمتاز بضربات معينة يعذّب بها الموقوفين. وذلك بأن يمسك الموقوف من مقدمة شعر رأسه، ويحرّكه يمنة ويسرة، فيستجيب ولا يستطيع المقاومة، ثم يشده بقوة نحوه فيرتمي إلى الأمام قليلاً، فيضربه ضربةً قوية بساعده (قرب المرفق) فيرميه أرضاً بقوة قرب الجدار، وعندئذ يدوس بعقب حذائه على رأس الموقوف ويضربه عدداً من الضربات المؤلمة المهينة... ثم يخرج مزهوّاً بانتصاره!.

وهو يعبرّ بطرق مختلفة عن كراهيته لحزب البعث وقيادته، وعن ضعف ولائه للسلطة التي يخدمها! فبين الحين والآخر تضبط السلطة بعض المتسللين من العراق عبر الحدود بحجة أنهم معارضون لحكم صدام حسين وطالبون للجوء السياسي في سورية، فكانت المخابرات تعتقلهم وتزجهم في سجن

الحلبوني لتحقق معهم فتطمئن إلى وضعهم، أو تتهمهم بأنهم مدسوسون لإحداث شغب في سورية... فحين يقول أحدهم إنني قادم لطلب اللجوء السياسي كان أبو طلال يشتمه ويقول له: أعندنا تطلب اللجوء السياسي! والله نحن لا نشبع الخبز، فكيف نطعم غيرنا؟!.

ومرة اعتقل شاب عراقي يدرس في جامعة دمشق اسمه كُوسْرَتْ، يقول: إن أباه كردي وأمه عربية، وهو بعثي مرتبط بالقيادة القومية —مكتب العراق في دمشق. وحصل أن دارت شبهة حوله بأنه متعاون مع بعث العراق، فاعتقلته المخابرات، وجيء به إلى "الحلبوني" وبدأ به التعذيب، وكان الذي يعذبه أبا طلال، فيقول كوسرت: والله يا رفيق أنا بعثي، واسألوا عني القيادة القومية، فيجيبه أبو طلال: "كذا" عليك وعلى القيادة القومية.

يحدثنا كوسرت فيما بعد، وهو يروي قصة تعذيبه فيقول: ما كنت أصدّق أن تشتم القيادة القومية لحزب البعث داخل فرع المخابرات، وأن تصدر الشتيمة من أحد عناصر الفرع!.

ومن القصص الطريفة التي حدثنا بها أبو طلال قصتان:

الأولى تدل على بقايا القيم الدينية في نفسه، وهي أن شاباً اعتقلته المخابرات في الصباح الباكر من أحد الأيام، في منطلق الباصات وهو يريد السفر، وجيء به إلى الحلبوني، ووجهت إليه بعض التهم، وطُلب من أبي طلال أن يقوم بالتحقيق معه. يقول أبو طلال: حاولت معه بالحسنى، وبالتهديد، ثم بالضرب المبرّح... ولكنه لم يعترف بشيء، فوضعته في الزنزانة بانتظار جولة أخرى في اليوم التالي، وكنت يومها مناوِباً (أي عليه أن يبيت في الفرع نفسه) ومع شروق الشمس سمعت خبطاً على باب إحدى الزنازين، فاستيقظت لأستجلي الخبر، وإذا الشاب الذي أتحدّث عنه هو الذي يخبط الباب. فتحت له الباب وقلت له: ما شأنك؟! لماذا تطرق الباب في هذه الساعة المبكرة؟! قال: أريد أن تضربني، أريد أن تعذبني فإنني أستحق

ذلك وأكثر!!. قلت في نفسي: هل أصيبَ الشاب بالجنون؟! قلت له: احكِ لي قصتك، فقال: أما التهم التي وجهتموها إلي فأنا منها بريء بريء. ولكنني أستحق الضرب والتعذيب لأن أمي لم تكن راضية عن سفري، وقد أرادت منعي من السفر فعصيتها وخرجت، فهذا نتيجة غضبها، وأسأل الله أن يغفر لي.

أما القصة الثانية فتدل على مدى الرعب الذي يعيشه عناصر المخابرات، إذ صار لهم في المجتمع أعداء كثر. يقول: كنت يوماً مناوباً في الفرع. وكان علي أن أبيت هناك، لكنني كما أفعل مرات كثيرة، أبقى حتى منتصف الليل ثم أذهب إلى بيتي، وهو قريب من الفرع، ويتحمل عني زملائي الأعباء إلى الصباح، وهي في الغالب أعباء شكلية.

ووصلت إلى البيت ، وبعد دقيقتين سمعت قرعاً بالباب، فقلت: لا شك أن أحد الناقمين كان يترصَّدُني، والآن يريد قتلي أو إيذائي، فلقَمتُ المسدس، وهيأت نفسي لأفتح الباب وأعاجل الواقف خلفه بضربة شديدة تجعله يتدحرج على الدرج ثم أرى إن كان هناك حاجة لإطلاق النار. وفعلاً فتحت الباب سريعاً ووجهت لكمة قوية لهذا الطارق فتدحرج وهو يقول لي: مالَكَ يا أبا طلال؟ أنا صديقك فلان!!.

لقد كان صديقي فعلاً، وكان يعلم أني مناوب في الفرع، فجاء إلى هناك ليزورني ويسهر معي، فلما قيل له: الآن ذهب إلى البيت، لحق بي، وكان ما كان!.

الشيخ الشاعر يوسف عبيد

كان من حظّي أن تعرَّفت إلى هذا الشيخ الشاعر في سجن حلب المركزي. فبعد فترة وجيزة من نقلي إلى هذا السجن، تم نقل اثنين من

السجناء السياسيين، فصرنا ثلاثة في غرفة واحدة: أنا، والشيخ يوسف، وعبد العزيز ج، المحسوب على البعث العراقي.

الشيخ أبو ضياء: يوسف عبيد رجل ضرير، ضخم الجسم، خفيف الظلّ، يحفظ القرآن الكريم، ويحمل إجازة (بكالوريوس) في الشريعة، وهو شاعر مجيد، ينتمي إلى حزب التحرير. ويكاد كل شعره أن يكون شعراً ملتزماً، بل إنّ السبب المباشر في اعتقاله كان قصيدة قالها في هجاء حافظ أسد واتهامه إياه بالخيانة.

ولا غرابة أن يكون يوسف عبيد من فحول الشعراء، فهو من قرية "عين النخيل" من أعمال منبج وما أكثر الشعراء الفحول المنبجانيين، بدءاً من البحتري، ومروراً بعمر أبي ريشة، ثم محمد منلا غزيّل وعبدالله عيسى السلامة... ولعلّ منبج قد أنجبت شعراء كُثُراً آخرين، فلست ممّن يتابع تاريخ الأدب والحركة الأدبية.

* * *

بعد حرب تشرين "التحريرية"! قام وزير خارجية الولايات المتحدة هنري كسنجر، بزيارات، وُصفت بالمكّوكيّة، بين واشنطن وتل أبيب ودمشق. وفي إحدى المرات طال الفاصل بين زيارة له وأخرى، فقد أمضى مدة تزيد على الشهر في الولايات المتحدة، تزوّج حينَها من "نانسي"، وعاد إلى دمشق، في استئناف لرحلاته المكّوكية.

الشاعر يوسف عبيد نظم قصيدة بعنوان "شهر العسل"، على أنه لزيارة كسينجر هذه، بصحبة عروسه. ابتدأ الشاعر قصيدته واصفاً العروس وعروسه:

شربَ المُدامةَ وانثنى نشوانَ مغرور الأمـاني
واختال فوق الريح في سبّاقة كالبرق جامحةَ العنان
وعروسُهُ الحسناء في مَلْفٍ تتيه بعُنفـوانِ
والخنجر المسموم في يدهِ كنَابِ الأفعـوانِ
وحقائبُ الدولار مُثقلة فصاح النطقِ، ساحرة البيان
يُلقَى بها ثمناً لمأجورٍ صغير النفس خَوّانٍ جبـانِ
فلتبرزِ الأوطانُ هاتفةً مُرَحِّبَةَ المرابعِ والمغانـي
بوزير أمريكا بِركْبِ عروسه الحسناء سيّدة الغواني

وفي مقطعٍ آخر يخاطب رأس النظام:

يا مَنْ تسير وراء أمريكا ذليـل الـرأس، منقاد اللجـام
وترى الوسام الأجنبي بصدرك الخاوي فتفخر بالوسامِ
وتَعبّ كأس الغدر خلف ستائر الإجرام، والجولان ظامي
لا تَحسَبِ الأوطان غافلةً عـن اللّعِبِ المُدمّرة الجسـامِ

وهكذا إلى آخر سبعين بيتاً.

ويبدو أنه ألقى هذه القصيدة في عدد من السهرات والتجمعات. فاعتقلته المخابرات، وسجنته في فرع مخابرات حلب، ثم في الحلبوني، ثم كان مستقرُه في سجن حلب المركزي.

وفي كلٍّ سجن من هذه السجون كان رؤساء هذه السجون، ومحققوها، وسجّانوها، وسجناؤها... يُعجبون بالقصيدة، ويلتذّون بسماعها، لكنّهم لا يجرؤُون غالباً أن يُبْدوا إعجابهم بها وبقائلها، وشماتتهم بـ "بطل الجولان" فكانوا يحتالون لسماع القصيدة مرة تلو الأخرى.

ففي بداية الاعتقال استمع المحقق إلى القصيدة كاملةً من الشاعر، وبعد ذلك قال كلاماً يلوم فيه ذلك الشاعر لَوْماً رسمياً! . يقصّ أبو ضياء علينا قصة جلوسه أمام هذا المحقق:

وجلستُ في صمت وألقى بالسؤال: أأنتَ شاعر؟!
ومتى نظمتَ الشعرَ، أوَما علمتَ بأنَّ نظم الشعر من إحدى الكبائر؟
ولِمَ الهجاءُ المرّ للأسد الهمام، وعَدْلُه كالشمس ظاهر؟!
وإذا تطاول شاعر يهجوه، فالمذياعُ يُخْرس كلَّ شاعر.

وهكذا في قصيدة جديدة، يردُّ فيها على المحقّق "الموظف" .

وفي الحلبوني كذلك، كان يأتي عنصر المخابرات، من سجّان أو محقّق، أو رئيس حَرَس... فيقول: هل صحيح يا أبا ضياء أنك نظمْت قصيدة في هجاء الرئيس؟! فيقول: نعم. فيقول: هل يمكن أن تسمعنا إياها؟!.. فيسمعه إياها كاملة.

يذهب هذا "العنصر" ثم يعود ومعه عنصر آخر أو اثنان، ويطلب من أبي ضياء أن يُسمع القصيدة ثانية.

ثم يأتي عنصر آخر فيكرر القصة. وكلهم يبدي سروره وإعجابه! فتصوّروا.

بل إننا، في سجن حلب المركزي، شاهدنا موقفاً أعجب. ففي أمسية أحد الأيام، كان يمرّ أمام السجن قائد شرطة محافظة حلب، ومعه "النائب العام" وبدا لهما أن يزورا ذلك السجن. واستقبلهما الضابط المناوب النقيب نهاد شقيفة، وراح الثلاثة يتجولون في ردهات السجن. فلما مرّوا أمام غرفتنا توقفوا، وتعرّفوا بنا وبقضايانا، وكان منظر أبي ضياء لافتاً للانتباه، فهو سجين سياسي ضرير! سأله قائد الشرطة: ما قضيتك؟. قال: قلتُ قصيدة في هجاء الرئيس!. قال: هل تسمعنا إياها؟! قال: نعم.

وبدأ ينشد قصيدته. وكنتُ أنظر في وجوه الثلاثة: النقيب والضيفين، فأرى مظاهر الفرح والإعجاب.

وبعد ذهابهم. عاد إلينا النقيب فقال: إنَّ السيد رئيس شرطة المحافظة يطلب نسخة من القصيدة!!!.

* * *

وأختم هذا الحديث عن الشاعر أبي ضياء، فأقول: لكل شاعر أبيات يقولها تندّراً وتملُّحاً، وتكون في الغالب بنت لحظتها، وهي، وإن لم تكن في مستوى الشعر العالي الذي ينسب إليه، تعبرّ عن مشاعره العفويّة.

مرّة كان يتناقش مع أحد البعثيين، فقال البعثي: شعارنا: أمة عربية واحدة. ذات رسالة خالدة. فسأله أبو ضياء: وما تعريف الشعار؟! فارتبك. وبعد ذهابه قلت: أتسأله عن التعريف، والتعريفات يعجز عنها من هو أكثر علماً وثقافة منه، بل لعلَّ هذا "الرفيق" لا يفرّق بين الشعير والشعار؟! فضحك وقال:

الشّعر والشعير والشعار ... يحسبها سواءً الحمارُ

ومرة، فقد نعليه من مكانهما. وهو يسمي النعلين "كُلاشاً" فقلت له: خُذْ أيٌ كُلاش من كلاشاتنا! فقال:

إذا ذهب الكُلاش فلا كلاش ... يقومُ مقامهُ عند اللّبوس

كان شِراكهُ لمســاتُ خَزٍّ ... كأنَّ مَدَاسَهُ وجه الرئيس!.

وقد قضينا في السجن معاً ما يزيد على السنة، فكانت روح أبي ضياء الحلوة تُذهب أكدار السجن، وتضفي عليه سروراً وحبوراً.

أبو راشد عبد الهادي و"الجندي"

كان رجلاً ضخم الجسم، أبيض البشرة، أقرب للشُقرة، دمثاً حلو الحديث... لكنه كذلك سريع الغضب، وإذا غضب خرج عن حدود الاتّزان. قوي الشخصية، قوي الإرادة، عنيد..

اسمه أبو راشد: أحمد راشد عبد الهادي، فلسطيني من جنين، ينتمي إلى حزب البعث، وقد كان معتقلاً لبضع سنوات في سجون بعض الدول المجاورة عندما حدث انقلاب الثامن من آذار ١٩٦٣م، وعندئذ ارتفعت معنوياته، وازداد تمسكه بحزبه، وراح يحلم بأن تمتدّ "الثورة" إلى أقطار مجاورة، فيحرّره رفاقه من سجون "الرجعيين"!.

خرج من السجن فتوجه إلى بلد الصمود والتصدي، وصار قائداً في قوات "الصاعقة" التي ترعاها سورية، برتبة رائد. وبسبب حزبيته وموقعه الجديد توثّقت علاقته بالمسؤولين السوريين، العسكريين والأمنيين، لا سيما "عبد الكريم الجندي" مدير المخابرات العامة!.

لكن الصورة المتوهجة التي كان قد رسمها في مخيّلته للرفاق المناضلين والحزب القائد، بدأت تخبو تدريجياً، ثم صارت قاتمة سوداء، وهذا ما دعاه إلى انتقاد تصرّفات السلطة والحزب وأجهزة الدولة، في بعض المناسبات، ولأنّ "النقد الذاتي" محظور فقد جاء "زائران" إلى أبي راشد يطلبان منه زيارة أحد فروع الأمن! قال لهما: عندي سفرٌ غداً، فأريد أن أمرّ على مكتب الطيران حتى أؤجل الحجز، فأتمكن من السفر بعد انتهائي من زيارة فرع الأمن هذا!. قالا: لا حاجة. زيارتك لن نستمر أكثر من نصف ساعة، وبإمكانك أن تسافر غداً في الوقت الذي حجزته من قبل!.

وكما هي العادة، فإن دقائق "المخابرات" "تُعَدُّ" بالأسابيع أو الشهور أو السنين.

وفعلاً استمرت إقامة أبي راشد في "الحلبوني" حوالي ثلاث سنوات.
وفي الحلبوني قضى في إحدى الغرف شهوراً مع الرفيق الآخر نقولا حنّا.
وكان كل من الرفيقين على علاقة سابقة بمدير المخابرات العامة السابق عبد الكريم الجندي.

أما الأستاذ نقولا، فيحدثنا عن ذكرياته مع "الجندي" يوم كان هذا "الجندي" وزيراً للإصلاح الزراعي، وكان نقولا رئيساً لفرع الحزب في الحسكة. يقول: أبلغنا بأن السيد الوزير سيزور المحافظة للقيام بمهماته بالإشراف على مديرية الإصلاح الزراعي هناك، وسوف يأتي بالطائرة وينزل في مطار الحسكة في يوم كذا. وكنتُ بين كبار المستقبلين له، وفي صالة استقبال الشرف في المطار، جلسنا قليلاً لنشرب فنجان القهوة، وأخرجت من جيبي علبة السجائر لأقدّم له سيجارة، وكانت السجائر أمريكية! فنظر إلي غاضباً معاتباً: "يا رفيق! أنحن ندخّن التبغ الأجنبي؟!" فخجلت من نفسي. وأخرج الوزير سيجارة "وطنية"، وقدّم إلي سيجارة مماثلة.

وابتلعتُ الإهانة، واحمرّ وجهي خجلاً من هذا الموقف أمام مجموعة المستقبلين!.

وكان من برنامج الزيارة سهرة سمر فنّية!، وكنت بجوار السيد الوزير في هذه السهرة، فأنا من أهم رجالات الحزب هناك، وفي هذه السهرة، أخرج "الجندي" علبة سجائر أمريكية من جيبه، وولاعة ذهبية، وقدّم لي كذلك سيجارة، وأشعلها لي بولاعته الفاخرة!. فلم أتمالك نفسي: "يا رفيق، اليوم وبّختني في صالة الاستقبال في المطار لأنني قدمت إليك سيجارة أمريكية، ثم ها أنت ذا تفعل مثله وزيادة!" فقال: في الصالة كان يوجد آخرون، غير حزبيين، ويجب أن نظهر أمامهم بمظهر أخلاقي ثوري، أما هنا فلا يوجد غير الحزبيين!!!.

وتأتي مرحلة يصبح فيها "الجندي" مديراً للمخابرات العامة، ويكثر تردده

على فرع الحلبوني ليتعرّف بنفسه على المعتقلين أولاً بأول، وقد يشرف بنفسه على بعض التحقيقات، وقد يحلو له أن يمارس أنواعاً ثورية من التعذيب، ففي بعض المرات، يأمر الجلادين بأن يلقوا السجين على ظهره، ويفتحوا فمه، ويقوم مدير المخابرات العامة بالبول في فم السجين!!.

ومرة يتم اعتقال مجموعةٍ من الضباط في الجيش السوري، بتهمة تشكيل نواة لتنظيم خاص!. ويمر مدير المخابراتِ العامة على الزنازين التي يُحتجز فيها هؤلاء، فيفتح "الطاقة" على كلٍ منهم، ويطلب منه أن يقترب من الطاقة، ويُمسك مدير المخابرات بيده أحد نعليه (وكثيراً ما كان يلبس البدلة الخاكي الرمادية، ويلبس بقدميه النعلين المعروفين بالشاروخ!) ويضرب رأس الضابط السجين ووجهه بالنعل!. وجاء دور ضابط سجين برتبة ملازم أول. وحين أمره مدير المخابرات بالاقتراب من الطاقة، وبيده النعل، صرخ الملازِم الأول: أيها الحقير، أتُظهر قوتك عليّ، وأنا في الزنزانة؟! إذا كنتَ رجلاً فافتح الباب عليّ، وتجرّأ على ضربي!.

عندئذ أمَرَ مدير المخابرات العامة السجّانين بفتح الباب لذلك الضابط، وأن يصنعوا فنجانين من القهوة، له وللضابط. وجلسا متقابلين على الطاولة، وقال "الجندي": إنَّ جميع زملائك الذين تحمّلوا مني الضرب ولم يردّوا: كلاب. وأنت وحدك الرجل من دونهم!.

* * *

وينتحر عبد الكريم الجندي، ويشكك بعض الناس بالخبر، ويقولون: بل إنَّ حافظ أسد هو الذي قتله، أي إنه نُحر ولم ينتحر، وتدور إشاعات حول أسباب "نحره" أو "انتحاره".

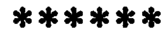
وليس هذا غريباً، فنظامٌ تعوّد على الكذب والتعمية وارتكاب الجرائم... لا يصدّقه الناس، وإن صدق مرةً. إنه كالراعي الكذّاب.

والذي أقتنع به أنَّ "الجندي" قد انتحر فعلاً. وعندي ثلاث روايات تتفق على هذا، وتختلف في أجزاء من رواية الحادثة أو تحليلها:

الرواية الأولى: مصدرها بعض أعضاء حزب التحرير الذين كانوا معي في المعتقل، وهي أنَّ عبد الكريم الجندي رئيس المخابرات (وكذلك القادة المتنفذون في السلطة، أيام صلاح جديد ونور الدين الأتاسي، أي قبل انقلاب حافظ أسد) كانوا عملاء لبريطانيا، وأرادت الولايات المتحدة أن تطيح بهم بالتعاون مع عميلها حافظ أسد. وحين أحسّ "الجندي" بتحرك أسد، كان الوقت متأخراً، وكان أسد قد رتّب أوراقه بشكل كامل، فأقدم "الجندي" على الانتحار إحساساً منه بالإخفاق والهزيمة.

الرواية الثانية عن أبي راشد: أحمد عبد الهادي. ومؤدّاها أن "الجندي" وهو في موقع مدير المخابرات العامة، علم بتحرك حافظ أسد للقيام بانقلابه بدعم من المخابرات الأمريكية، وكان علمه هذا متأخراً بحيث لم يعد بإمكان "الجندي" أن يحبطه، فقد وزّع أسد أنصاره من الضباط على المواقع الحساسة في مختلف القطعات العسكرية. فاتصل هاتفياً بحافظ، وقال له: "هذه الرقبة لن أسلّمها للأمريكان" وأطلق الرصاص في رأسه وانتحر.

الرواية الثالثة وقد اطّلعتُ عليها مؤخراً من خلال المكالمة الهاتفية التي نُشر نصها في "الوطن العربي" في ٢٠٠٦/١١/١٥ بين تمام البرازي وبين السيد عبد الحليم خدام: السياسي البعثي المخضرم. يقول السيد خدام: ((عبد الكريم "الجندي" انتحر. وكنتُ عند رئيس شعبة المخابرات العسكرية ابن أختي، ورنَّ عنده الهاتف، وكان على الخط أبو حسين، أي عبد الكريم الجندي، وقال له: "أنا قررت الانتحار.. اسمعْ" وأسمعنا طلقة الرصاص!)).



ونعود إلى أبي راشد عبد الهادي، فقد كانت له مواقف جريئة داخل المعتقل.

منها أنه، بل جميع المعتقلين، كان يرى كيف يؤخذ عناصر المخابرات من فرع الحلبوني، ومثل ذلك في الفروع الأخرى، من أجل تأمين الحراسة لهنري كيسنجر، في رحلاته المكوكية. فكان أبو راشد إذا أراد أن يعنّف السجانين في الحلبوني، ويشتم رؤساءهم كذلك، كان يصرخ بأعلى صوته: لستم أكثر من كلاب حراسة لكسنجر!.

ومنها أن رجلاً اعتُقل معنا لفترة شهر تقريباً، وادّعى، في أحاديثه معنا، أنّ له صلات برئيس مكتب الأمن القومي ناجي جميل، وأنّ بإمكانه القيام ببعض الوساطات للإفراج عن بعض المعتقلين. فانفرد به أبو راشد، واتفق معه على أن يدفع له مبلغاً من المال مقابل تلك الوساطة، وكتب له كتاباً إلى أهله (أي إلى أهلِ أبي راشد، في دمشق) كي يسلموا المبلغ لهذا الوسيط، وتسلّم المبلغ فعلاً، لكنه ذهب ولم يَعُدْ!. عندئذ كتب أبو راشد كتاباً إلى رئيس مكتب الأمن القومي يقول فيه: إنّ فلاناً قد أخذ مني مبلغ كذا، كي يدفعه رشوة لك حتى تطلق سراحي، فإما أنه صادق، وقد أعطاك حصتك فلماذا لم تفرج عني؟ وإما أنّه كاذب يدّعي عليكم بما ليس فيكم، فعليكم أن تعتقلوه وتحاسبوه!.

قصة "طامس" واليهودي

"طامس" اسم أستعيره لأحد المعتقلين الفلسطينيين الذين تعرفت إليهم في "الحلبوني"!.. وله قصة مؤسفة مُقرِفة!.

في إحدى أمسيات رمضان، في أيام حرب تشرين "التحريرية" عام ١٩٧٣م، وكان التيار الكهربائي مقطوعاً، سمعنا ضجيجاً وأصواتاً منكرة من الصراخ

والشتائم والضرب... في ساحة السجن... ومع أننا تعودنا سماع أصوات "حفلات" التعذيب الشنيعة... فإن نفوسنا لم تألفها، وهل تألف النفوس ما يخالف الطبيعة البشرية التي خلقها الباري سبحانه؟!

لم يستمر طويلاً تساؤلنا عما يجري، وعمّن يمارَس عليه التعذيب فقد فتح الباب علينا كبير السجانين أبو طلال، وأدخل معه اثنين في حالة لا يحسدان عليها، وهو يوجّه إليهما الشتائم، من فوق "الزنّار" ومن تحته كذلك. وقال لهما: اجلسا هنا، وأشار إلى زاوية الغرفة حيث نضع أحذيتنا!.

ثم وجّه الكلام إلينا: إياكم أن تتحدّثوا مع هذين الكلبين!. قاطعوهما تماماً، لا تقتربوا منهما. هل فهمتهم؟!.

ولم يكن يتوقع منا جواباً.

غادر الغرفة فبدأنا نتهامس فيما بيننا: ما القصة؟! لماذا يحذّرنا من الحديث مع هذين؟! ومن هذان؟!.

بعد نحو دقيقتين عاد إلينا أبو طلال ففتح الغرفة ثانية وقال: لقد نهيتكم عن الحديث مع هذين الكلبين، وأريد أن تعرفوا أنّ هذا، وأشار إلى أحدهما، يهودي، والآخر "......" ونطق بكلمة بذيئة، تعني أنه أسوأ.

أبو طلال رجل ذكي نوعاً ما، وقد علم أنه لا بدّ أن نتحدث مع النزيلين الجديدين مهما حذّرنا.. لذلك أفشى إلينا بسرّهما: أحدهما يهودي، والثاني أسوأ.

لكن كلامه هذا لا يشفي الغليل: فهل الأول يهودي فعلاً؟! وهل هو يهودي سوري، أم إسرائيلي، أم أنه مثلاً جاسوس دخل البلاد بصورة سائح...؟

والثاني؟! ما صفته وما ذنبه حتى يصفه بأنه أسوأ من صاحبه؟!

ساعةً بعد ساعة، ويوماً بعد يوم، بدأت الصورة تتّضح.

كان السجانون يتبارون في إهانة هذين، وقد أطلقوا على أحدهما اسم

"حمار" والآخر اسم "بغل"، فكلما فتح باب الغرفة لنخرج إلى "الخطّ" أي إلى دورة المياه والمغسلة، كانوا يوجهون الإهانات إلى الحمار والبغل، ويأمرانهما ببعض الأعمال المذلّة، كجمع الأوساخ، وفتح المجاري...

وبعد حوالي أسبوع جرى "التطبيع" بين السجانين وبين طامس واليهودي.. ثم صار التعامل مع طامس تعاملاً حسناً.

علمنا أن اليهودي دمشقي من حي الشاغور، وهو متهم بالتعامل مع إسرائيل.

وعندما كنا نقوم إلى الصلاة يقف هو على رجليه. فنقول له: لماذا تكلف نفسك القيام؟ ابقَ قاعداً!! فيقول: يجب أن أقوم احتراماً للصلاة!.

وبعد أيام قليلة من مكثه معنا في الغرفة قال: أريد أن أُسْلِم. ونطق بالشهادتين، وطلب أن نعلمه الصلاة. وصار يجلس معنا في الحلقة القرآنية التي نعقدها مرتين كلَّ يوم. وصار يصلي معنا.

وبعد حوالي شهر، تم نقل طامس واليهودي إلى القبو مرة أخرى، فقد كان سبب نقلهما إلى غرفتنا أنَّ القبو في أيام الحرب قد امتلأ بالنزلاء، وكان لا بد من نقل بعضهم إلينا!.

ثم بعد شهرين آخرين تقريباً تم نقلنا نحن أيضاً إلى القبو، فعلمنا من بعض المعتقلين الذين شاهدناهم أنَّ اليهودي قال لهم: لقد عشت مع الإخوان المسلمين في غرفة واحدة فترة من الزمن، وضحكتُ عليهم فأظهرت لهم إسلامي!.

والحقيقة أننا وإن قبلنا منه إسلامه حين أظهره، ووكلنا أمره إلى الله، لم نكن مطمئنين إليه، فقد كان الخبث يظهر منه في كثير من تصرفاته.

أما "طامس" فقد علمنا قصته، جملة وتفصيلاً، لا سيما بعد أن عشنا معه في القبو.

كان شاباً في الرابعة والعشرين من عمره، قويَّ البنية، قليل العلم والثقافة،

لا يتجاوز تعلمه المدرسي المرحلة الابتدائية، ولكنه يملك "خبرة جيدة" في ميادين الخمر والنساء والنوادي الليلية...

وبما أنه من "الضفة" ويملك حق الخروج والدخول إلى الأرض المحتلة، فقد اكتشفت فيه المخابرات السورية والمخابرات الإسرائيلية هذه الإمكانات والمواهب!

أما المخابرات السورية، ممثلة بالفرع الخارجي، أو برئيس الفرع الخارجي: العقيد م المحاميد، فقد تعاقدت معه على عمل ظاهري شكلي، وعمل حقيقي، أما العمل الظاهري فهو أن يسافر إلى إسرائيل مرتين في السنة ويأتيها ببعض الأخبار، أي أن يتجسس على إسرائيل، ويخدم بذلك قضيته! وأما العمل الحقيقي فأن يعمل "قوّاداً" عند العقيد المحاميد: فيجلب له المومسات الصغيرات يستمتع بهنّ! ويكون بذلك قد وضع القوّاد المناسب في المكان المناسب.

وبسبب هذا العمل الحقير الذي يقوم به، فقد كان يتردد كثيراً إلى الفرع الخارجي، وكان عناصر هذا الفرع قد عرفوه وصادقوه، ولعل بعضهم كذلك كان يستفيد من مواهبه الفذة تلك!.

وكانت المخابرات السورية تعلم بعلاقة طامس مع المخابرات الإسرائيلية، وكذلك تعلَمُ هذه بعلاقته مع تلك، لكن كلا منهما تحاول اللعب بذكاء بحيث تستفيد، وتتقي الضرر!.

وحصلت المشكلة الفاجعة، وهي أنّ المخابرات الإسرائيلية طلبت من طامس أن يحصل لها على خريطة مواقع معسكرات فتح في لبنان!.

وحمل طامس الطلب إلى العقيد المحاميد. ورأى العقيد أن الأمر سهل. ما المانع أن يعطيه هذه الخريطة؟!

وفعلاً أخذ طامس الخريطة وسافر بها. نزل ليلة في أحد فنادق عمان، في طريقه إلى الضفة ثم إلى أسياده في الأرض المحتلة.

كانت مخابرات "فتح" تشك في طامس، وقد وضعته تحت المراقبة. فلما نزل في الفندق ذلك، أرسلت إليه إحدى المومسات "المتعاونات"، وسرعان ما وقع ما وقع! شربا من الويسكي، ونزعا ثيابهما، ثم... ثم نام السكران مستغرقاً في أحلامه، واستيقظت صاحبته ففتحت حقيبته وأخرجت الخريطة.. ثم وصلت هذه الخريطة إلى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات الذي حملها بدوره إلى حافظ أسد ليقول له: أهذا ما ترسلون به عميلكم إلى إسرائيل؟!.

لم يكن صعباً أن يعرف أسد أن العنصر طامس تابع للعقيد المحاميد، فأرسل إليه يعاتبه أو يعنفه: كيف تستعينون بمثل هذا العميل الغبي؟!.

ماذا يفعل المحاميد؟! هل يحاسب طامساً لأنه نزل في فندق، ولأنه سكر وزنى؟! وهل أنشأ معه العلاقة إلا على أساس هذه المواهب؟!؟

وكان طامس هو المجرم وهو الضحية. فأمر المحاميد بسجنه ونقله إلى الحلبوني وديعة. بمعنى أن مسؤولي فرع الحلبوني لا يملكون صلاحية التحقيق معه، إنما يحتجزونه فقط ويذلونه.

وكان طامس يقول لنا: لا يمكن أن أخرج من السجن طالما بقي المحاميد في موقعه.

وبالفعل فما إن عُزل المحاميد حتى خرج طامس من السجن.

أما السر في تحسن معاملة السجانين في الحلبوني لطامس، فإن أبا طلال الذي كان مغتاظاً في بداية الأمر من طامس، وقد أخذ عنه فكرةً سيئة تقتضي أنه عميل جاسوس خائن... تبيّن له بعدئذ أنّ طامساً رجل شريف!. إنه فقط قوّاد سكير مغرر به، متعامل مع المخابرات السورية والإسرائيلية!.

السبعة الناجون

كان ذلك في خريف عام ١٩٧٤م.

وكانوا ثمانية لا سبعة، ينتمون إلى اتجاهات سياسية وجنسيات مختلفة. أعرف أن واحداً منهم كان ألماني الجنسية، وآخر من غزة، وثالثاً شركسي سوري....

وكانت أعمارهم تتراوح بين الخامسة والعشرين، وبين الأربعين، وكانوا جميعاً محشورين في غرفة واحدة من الغرف الأربع في سجن الحلبوني.

كانت الغرف الأربع على نسق واحد، كلها مطلّة على الساحة الواسعة. وحتى لا يستمتع نزلاء الغرف بمنظر الساحة فقد بني جدار حاجز بارتفاع مترين على بعد حوالي مترين ونصف من نوافذ تلك الغرف. وكانت كل غرفتين تشتركان بممر يفصل بينهما، فالدخول إلى أيّ غرفة يحتاج أولاً إلى دخول الممر، ولهذا الممر باب يقفل على الدوام، فلو استطاع السجين فتح باب غرفته أو كسره لأصبح داخل الممر المقفول كذلك، ولو استطاع فتح باب الممر لأصبح في الممر المكشوف المفصول عن الساحة.

وكان السجناء الثمانية في الغرفة الأخيرة التي لها جدار على الشارع، وليس في هذا الجدار أي نافذة أو فتحة!.

فكر بعض هؤلاء السجناء بحيلة يتمكنون بها من النجاة. وإذاً فليحفروا فتحة في الجدار الملاصق للشارع. ولم يكن ذلك سهلاً، فمن أين يأتون بأدوات الحفر؟ وأين يذهبون بنواتج الحفر؟، وكيف تتم العملية من غير أن ينتبه السجانون؟!.

إنّ نيل الحرية يحتاج إلى ثمن. وكان هذا الثمن تفكيراً ذكياً،

وجهداً ودأباً على مدى عشرين يوماً، وتيقُّظاً لئلا تشعر إدارة السجن فتحبط المشروع، وتذيق طلاب الحرية مزيداً من التنكيل!.

بدأ هؤلاء السجناء بالحرص على اقتناء ملاعق الطعام ذات الطرف المدبّب، تلك التي ينقش على مقبضتها سنبلة، وهي مصنوعة من "الكروم". وراحوا تدريجياً، يحفرون بها "الزريقة" أي طبقة الإسمنت التي تغطي اللبنات على الوجه الداخلي للجدار، في المنطقة التي قرروا أن يكون المخرج فيها، وهي في أسفل الجدار.

وفي أثناء الحفر يقف أحد السجناء على الشباك لينبّه الحفارين إذا جاء أحد الحرس. وفي غير أوقات الحفر يضعون البطانيات أمام المكان المحفور، ويجلسون بجواره، ليبدو كل شيء طبيعياً.

وكانوا يهرّبون نواتج الحفر تدريجياً كذلك، مع القمامة.

ولما فرغوا من إزالة الزريقة عن الجزء المطلوب، شرعوا بإزالة "المونة" الإسمنتية حول اللبنة التي سيكون المخرج منها.

وحين اكتمل العمل توقعوا أنَّ ركلة قوية ستكفي لإزاحة اللبنة إلى الخارج، ولتحدث الكوّة الكافية. ولست متأكداً أهي لبنة واحدة أم اثنتان؟!.

وكان توقعهم صحيحاً، فقد انفتح الطريق أمامهم بعد منتصف الليل، وتسللوا الواحد تلو الآخر، حتى خرج سبعة منهم. وأما الثامن الألماني، فلم يَرَ مصلحةً له في الخروج، إذ إن إلقاء القبض عليه إذا خرج أمرٌ مؤكد، فهو لا يعرف العربية، ولا يعرف شوارع المدينة، وجواز سفره محتجز عند إدارة السجن.

وفي الساعة السابعة صباحاً، جاء السجّان "بدري" ليعطي إشارة الإذن لنزلاء الغرفة بالخروج لقضاء الحاجة، وهو ما يسمى في اصطلاح هذا السجن بالخطّ!، فنادى كعادته: "واحد خطّ!" ونظر في الغرفة فلم يجد إلا

الألماني، فصرخ فيه: أين رفاقك؟!.

لم يفهم الألماني ماذا قال السجّان، لكنه أدرك أنه يسأله عن زملائه، فراح يشير بحركات متوالية من سبّابته إلى الكوة التي خرجوا منها ويقول: "فشْتْ، فشْتْ، فشْتْ". ليبينّ أنهم خرجوا الواحد تلو الآخر.

امتلأ "بدري" بالغضب والرعب معاً!. فماذا سيكون موقف إدارة السجن، وهل ستحمله المسؤولية؟!.

جرت تحقيقات مع السجانين، دون جدوى.

وتمت العملية بنجاح. ولم تملك إدارة السجن إلا أن تعاقب السجناء الذين لم يهربوا، فقامت بنقلنا، نحن نزلاء الغرف الثلاث الأخرى إلى القبو، كما قاموا بحملة تفتيش مزعجة... لكننا كنّا مسرورين إذ تمكن بعض السجناء من النجاة والحصول على حريتهم، وباءت إدارة السجن بالخزي والعار، إذ لم تنفع كل إجراءاتها في ضبط الأمور كما تريد.

ميشال أبو جودة

إنه الصحفي اللبناني، ذو الشهرة الفائقة، صاحب العمود اليومي في جريدة النهار.

ولكن ما شأنه هنا، ونحن نتحدث عن المعتقلات السورية، وعن جلاديها ومحققيها ونزلائها؟! والجواب: إنه حظي بضيافة الحلبوني، مدة أربع وعشرين ساعة. ولهذا قصة.

في عام ١٩٧٤، وفي أحد أيام الصيف، فيما أذكر، كان باب الغرفة الجماعية في قبو الحلبوني، أو الغرفة رقم ٣، مفتوحاً، مدة نصف ساعة، حتى يتمكن نزلاء الغرفة من الخروج إلى "الخط" لقضاء الحاجة.

وكان هؤلاء النزلاء قد أحسوا بحركة تدل على مجيء نزيل

جديد، وذلك قبل نحو ساعة. ولا شك أن النزيل الجديد قد أودع إحدى الزنازين! فدفعهم حب الاستطلاع للتعرف على هذا الضيف. ذهب أحدهم إلى الزنزانة التي نزل فيها الضيف، فقام الرجل الكهل متثاقلاً، لا تكاد تحمله رجلاه! وبادر هو بسؤال النزيل القديم: أين أنا؟! أجابه: كيف "أين أنا؟".

أعاد الضيف السؤال: في أي مكان أنا؟. قال: ألا تعرف؟ إنك في الحلبوني! قال (وحديثه كله باللهجة اللبنانية): شو هَيْدي الحلبوني؟!. قال: الحلبوني، سجن المخابرات الأشهر. قال: أين هو؟! قال: أسئلتك غريبة. إنه "الحلبوني" في وسط دمشق العاصمة! قال: أنا إذاً في سورية! قال: نعم. وهل كنت تظن نفسك في الكونغو؟!. لا شك أنّ لك قصة عجيبة. حدّثني بسرعة قبل أن يرانا السجّان!.

قال: أنا الصحفي اللبناني ميشال أبو جودة، الكاتب الأول في جريدة النهار. وقد كتبت مقالات ضدّ الحكومة السورية. واليوم، أو البارحة، لا أدري، لقد اختلطت الساعات والأيام عليّ، هجمت عليّ عصابة. الآن عرفت أنهم من عناصر المخابرات السورية. أمسكوني بقوة، بينما كنت أنزل من سيارتي، وأدخلوني في سيارتهم. وكان آخر ما أذكره أن اثنين من العصابة أمسكا بي، وكان بيد الثالث حقنة (سيرنج) وبدأ يغرسها في جسمي. ثم لم أشعر بشيء إلا أنا في هذا المكان!!!.

انتبهت إدارة السجن إلى خطورة أن يتعرف النزلاء على الضيف العزيز. ولكن بعد فوات الأوان، ففرضت حصاراً شديداً تمنع أي واحد من الاقتراب من زنزانته، في أثناء الخروج إلى الخط، أو اقترابه هو من زنازين الآخرين في أثناء خروجه.

في المساء، شعرنا، نحن نزلاء الغرف (التي تطل على ساحة السجن، خارج القبو) بحركة لافتة للانتباه، فقد كان عناصر الفرع يقومون بغسل ساحة السجن، وتنظيف البركة في وسط الساحة.

وفي حوالي الساعة العاشرة مساءً، جاء بعض ضباط الأمن، يبدو أنهم من رتب عليا، من مديرية المخابرات العامة، ودخلوا الساحة، ثم صعدوا في المبنى الرئيس المخصص لرئيس الفرع والمحققين... ثم أخرج الأستاذ ميشال، وعن يمينه عنصر من المخابرات، وعن يساره عنصر آخر.

لقد أطفأنا نحن أضواء الغرفة عندنا، كي نتمكن من التسلق إلى أعلى النافذة والتفرج على المشهد، من غير أن ينتبه إلينا السجانون!.

بطبيعة الحال، لا ندري ما الذي حدث بين هؤلاء الضباط وبين الضيف العزيز. ولكننا علمنا، في اليوم الثاني، من بعض السجّانين الأصدقاء أن صفقةً قد تمّ عقدُها: إما أن تعود إلى انتقاد "سورية الصمود" فنعود إلى خطفك، وربما تكون هي الساعات الأخيرة في حياتك، وإما أن تتعاون معنا ولكَ ما تريد!.

الأمير فايز حرفوش

دخل علينا طويلَ القامة، شاحب الوجه، مهدّل الحاجبين، نحيل الجسم، طويل شعر الرأس واللحية على نحوٍ عفوي أو وحشيّ، كأن الحلاق لم يقترب منه منذ سنة، طويل الأظفار، هيئته تذكّر بالرسوم التي يَتخيّل بها الفنانون رجال الكهوف في العصور الأولى!. قسمات وجهه توحي أنه على رأس الأربعين، وضعف بنيته يوحي أنه على رأس الثمانين!.

يتكلم بتلعثم وتردد، وهو يتلفت يمنة ويسرة، كأنه يتوجّس من عدوٍ غادر.

لقبُ الأمير في بداية اسمه، لقبٌ رسمي يتحلى به آل حرفوش اللبنانيون. فهو مواطن من لبنان الشقيق! ووالده -كما ذكر لنا- هو السيد فوزي حرفوش الموظف في مجلس النواب اللبناني آنذاك.

كنا في الحلبوني في خريف ١٩٧٤، يوم دخل علينا الرجل. وقد حاولنا

تطمينه، وإدخال الأمن إلى نفسه. ورويداً رويداً بدأ الرجل يستأنس ويندمج فيمن حوله، ويستعيد نضارة الوجه، والحيوية والروح الاجتماعية والمرح، وبدأت تظهر مواهبه. فهو يملك مهارات يدوية فائقة. وعلى سبيل المثال كان يصنع من لبّ الصمّون عجينة، ويلوّن نصفها برماد الورق المحروق، ويصنع مجموعتي أحجار شطرنج على نحوٍ متقن... يكمل ذلك كله في أقل من نصف ساعة!. كما يصنع من بعض فضلات غرفة السجن، من علب الورق المقوّى، ومن أغلفة علب السجائر.. مجسّم طائرة من الطراز الذي نريد: فانتوم أو ميغ ١٧ أو ميغ ٢١ .

ويتقن صناعة الأحبار السريّة، ويحفظ عدداً كبيراً من قصص السجون والجواسيس..

وصحيحٌ أننا لم نعرف السبب الحقيقي لاعتقاله، لكنّ أجهزة المخابرات السورية عوّدتنا على وجود طيفٍ واسع لديها من الأسباب الموجبة للاعتقال، وإذا كانت هناك أسباب وجيهة في أحيان قليلة، فإن وراء الاعتقالات في معظم الحالات سببين كبيرين:

الأول الإساءة لوجه سورية أمام العالم، فكم من سائح بريطاني أو إسباني أو أسترالي أو ألماني... دخل البلاد بشكلٍ نظامي، ثمّ تحرّشت به إحدى دوريات المخابرات في بعض شوارع دمشق، فاعتقلته احترازياً، وأطلعته على فنون التعذيب في فروع المخابرات، وأكرمته بالضيافة أياماً أو أسابيع على الطريقة البعثية، ثم أطلقت سراحه ليكون مندوباً إعلامياً يقوم بالدعاية المشرّفة لدولة المؤسسات (الأمنيّة)!.

الثاني: تحقير الإنسان الذي كرّمه الله تعالى، وهذا لا يقتصر على الإنسان السوري، بل يشمل دول الجوار، والدول القريبة والبعيدة في القارّات الخمس!.

بعد هذا لا يهمّ أن تكون التهمة الموجّهة للسيد حرفوش هي تهمة العمالة لإسرائيل، أو تهمة النيل من بطل الصمود والتصدي، أو تهمة الاعتراض

على النفوذ السرّي لأجهزة الأمن السورية في لبنان (كان هذا قبل دخول القوات السورية العلني عام ١٩٧٦). فأجهزة الأمن جاهزة لاصطناع التهم وإلصاقها بمن تريد، وقد أحرزت تقدماً في صنع التهمة المناسبة للرجل المناسب!.

بعد هذا أقول: أيّاً كانت التهمة الموجّهة، ومهما كانت درجة ثبوتها، فلن نجد مسّوغاً لما لقيه السيد حرفوش والظروف التي صاحبت ذلك:

١ - فقد تم خطفه من الشارع في بيروت، واقتياده إلى سجن سرّي للمخابرات السورية داخل لبنان، وإبقاؤه هناك نحو سنتين. وفي هذا ممارسة لأسلوب العصابات الإجرامية (التي تخطف من دون سند قانوني)، وفيه تجاوز لسيادة الدولة اللبنانية، إذ يحدث هذا على يد أجهزة غير لبنانية، ووجود سجون سرّية على أرضها تابعة لدولة أخرى (بعلمها، أو بغير علمها!).

٢ - وقد كان السجن في غاية الوحشية، بعيداً عن كل المعايير الإنسانية. ذكر لنا السيد حرفوش أن السجن في قبو عميق، ينزل إليه بنحو خمسين درجة، فلا يمكن تسرب أشعة الشمس إليه، ولا وصول الهواء النظيف. ويؤكد كلامَه هذا، الشحوبُ على وجهه، والنُحول في جسمه، والضعف الشديد في بنيته، يوم أن جاءنا.

٣ - وكانت معاملته كذلك في غاية السوء، يدل على ذلك هيئته المزرية (يوم انتقاله من ذلك السجن إلى الحلبوني في دمشق) وشعوره بالوحشة والخوف... فعلى الرغم من سوء المعاملة التي كنا نقاسيها في الحلبوني، شعرنا أننا في سجن (خمس نجوم) بالقياس إلى ما كان عليه هذا الرجل. ولا يزيد على سجنه سوءاً إلا ما لقيه المعتقلون في سورية في سجن تدمر بدءاً من عام ١٩٨٠ فما بعد.

لقد استطاع الحزب القائد، وأجهزة أمنه المتطورة أن تختلق كل حين من أساليب القمع والسحل وتحطيم الشخصية... ما يستصغر المرء معه كل ما سبقها من أساليب!.

السجين سعيد (ك)

كان من السجناء الذين عاشوا معنا، أو عشنا معهم، في قبو الحلبوني. شاب دمشقي اسمه سعيد (ك).

إنه شاب مرح اجتماعي حلو الحديث.. طويل القامة، أبيض البشرة.

استفدنا منه في التعرف على طرائق أجهزة المخابرات!

من ذلك أن الذين تستعين بهم تلك الأجهزة على ثلاثة أصناف:

صنف موظف في تلك الأجهزة. وهذا الصنف منه مَن يحمل رتبة عسكرية، ويكون في أصله ضابطاً في الجيش أو صف ضابط، ومنه المدني، ويعمل في الغالب في مهنة محقق أو كاتب!.

وصنف عميل للمخابرات، يكون الواحد من هؤلاء صاحب بقالة أو مقهى، أو عاملاً في فندق، أو طالباً في الجامعة... ويرتبط مع أحد العناصر من الصنف الأول، ويتلقى منه التكليفات، ويتقاضى منه أجراً على "الإخباريات"، وقد يقدّم إخباريات كاذبة، إما انتقاماً ممن يختلف معه في شأن من شؤون الحياة، أو ممن ينافسه في مهنته، وإما طلباً للاسترزاق فحسب!... وقد تعتقله أجهزة الأمن التي يعمل معها، لأنه ورّطها نتيجة تقاريره الكاذبة، ثم تفرج عنه بعد أن تكون أدّبته!.

وهذان الصنفان معروفان لدى معظم الناس، بمعنى أنّ وجود هذين الصنفين معروف، لكن الصنف الثالث هو الذي لا يعرفه معظم الناس:

الصنف الثالث: وهو مجموعة أفراد يتعاقد أحدهم مع فرع من فروع المخابرات مدة سنة أو اثنتين، ويكلّف خلال هذه المدة بمهمات في مدينته أو قريته أو في مكان آخر... أو خارج القطر. فإذا انقضت مدة العقد، فإما أن تجدد لمدة أخرى برضا الفريقين، وإما ألا تجدد. وقد يجري التعاقد بين الفرد نفسه وبين فرع أمني آخر.

ولقد كان سعيد (ك) من هذا الصنف، كما ذكر لنا، فعمل مدةً مع الشعبة السياسية، ومرةً أخرى مع مخابرات القوى الجوية... ولعله كذلك عمل مع أجهزة أمن أخرى.

وكان يبدو من شخصيته أنَّ التعليم الذي تلقّاه متواضع جداً، فهو في الغالب لا يحمل شهادة الدراسة الثانوية، ولا أدري إذا كان قد اجتاز المرحلة الإعدادية. لكن ثقافته الاجتماعية جيدة، وعنده كذلك ثقافة دينية مقبولة، فهو من أبناء هذا الشعب: ينشأ في صغره في بيئة متدينة، قد تكون واعية متعلمة، أو ساذجة قليلة العلم والتعليم! وفي مرحلة الشباب يتصيده بعض الفاسدين، لا سيما إذا أخفق في دراسته وترك المدرسة، ويجرّونه إما إلى لعب القمار وشرب الخمر... وإما إلى العمل في المؤسسات الحزبية أو الأمنية. ومثل هؤلاء يتردد في سلوكهم أثر التربية الدينية التي نشؤوا عليها في صغرهم، وآثار الفساد الذي لحقهم في سن المراهقة فما بعدها. وكان سعيد (ك) من هؤلاء.

وقد حدثنا عن بعض مشاهداته لألوان التعذيب في سجن الآمرية الجوية. ففضلاً عن الأنواع المعروفة من الضرب بالكابلات وبالخيزرانة والتعذيب بالكهرباء، هناك التعذيب بالضوء الباهر!! كيف؟.

قال: يُلقى السجين على ظهره في وسط غرفة التعذيب الكبيرة، وتربط يده اليمنى من الرسغ بسلسلة معدنية إلى حلقة في أرض الغرفة، في الزاوية الأقرب إلى هذه اليد، وتربط اليد اليسرى كذلك بسلسلة إلى الزاوية القريبة منها، وتربط كذلك كل من القدمين إلى الزاويتين المقابلتين، وبذلك يصبح الجسد ملتصقاً بالأرض، والأطراف الأربعة مشدودة إلى الزوايا الأربع!. وهذا بذاته تعذيب، ولكن التعذيب المقصود هو فوق ما ذكر، إذ تفتح عيناه ويوضع بين كل جفنين عود ثقاب حتى تبقى العينان مفتوحتين لا يمكن إغلاقهما، ويطلب من السجين أن "يعترف"! فإذا لم

يعترف بما يرضي المحقق، أشعل المحقق ضوءاً باهراً (بروجكتور) وقال للسجين: ستبقى هكذا إلى الغد!. وغادر الغرفة!.

يقول سعيد (ك): مهما كانت قدرة السجين على التحمل فإنه بعد دقيقتين، في أعلى تقدير، يبدأ بالصراخ والاستغاثة. ويكون المحقق واقفاً في غرفة مجاورة يسمع الصراخ، فهو يعلم أن السجين لن يتحمل هذا الضوء الباهر، وسيصرخ. وعندئذ يأتي إليه ويقول: اعترفْ!. فيقول السجين: أرجوك أطفئ الضوء، وأعترفُ لك بما تريد!، فيصرُّ المحقق على أن يتم الاعتراف قبل إطفاء الضوء!.

****

كما حدثنا أن السلطات الأمنية قلقت من اتساع شعبية الشيخ حسن حبنكة (رحمه الله)، وازدياد عدد تلامذته، ونشوء حلقات العلم المختلفة في جماعته، فأرادت أن تحوك مؤامرة تورّط فيها بعض هؤلاء التلامذة بعمل (غير قانوني)، وتتخذ الذريعة لضرب جماعة الشيخ. وكانت المؤامرة أنّ كلفتْ بعض العناصر، ومنهم سعيد (ك) فبدؤوا يحضرون دروس الشيخ ويُبدون تجاوباً كبيراً، ويتظاهرون بالتدين، ويشاركون في حلقات العلم... ثم راحوا يَدْعون إلى إيجاد تنظيم سرّي يحرّض على معارضة الدولة... ولقيتْ دعوتهم قبولاً لدى بعض تلامذة الشيخ. وبعد أسابيع على سير المؤامرة قامت عناصر المخابرات بمداهمة بعض هذه المجموعات، واعتقلت أفرادها، ومارست عليهم التعذيب للتعرف على أفراد آخرين، ولاكتشاف حقيقة توجهاتهم...

وكان سعيد نفسه بين المعتقلين، وتلقى تعذيباً كالآخرين. وربما لم يتم إعلام عناصر الفرع الذي يتم فيه التحقيق، بحقيقة وضع سعيد، وذلك حتى يأخذ التحقيق مجراه.

وبعد مضي الأيام الأولى للاعتقال، وإقفال التحقيق، تم فرز المعتقلين، حسب درجة خطورة كل منهم، وجاءت التوصية أن يصنّف سعيد في المجموعة ذات التهمة الخفيفة، التي سيتم الإفراج عن أصحابها. وبذلك أفرج عنه، ودفعت له الشعبة السياسية تعويضاً مالياً مجزياً، لقاء التعذيب والسجن اللذين تعرض لهما.

ما أخبث إبليس وجنوده!.

نقولا حنّا

الناس يعرفون هذا الاسم على أنّ صاحبه مذيع في إذاعة صوت أمريكا. ولا شك أنّ أهله وأصدقاءه يعرفون عنه جوانب أخرى، لا يطّلع عليها المستمع له من الإذاعة.

وقد كان لي مع الأستاذ نقولا معرفة في سجن الحلبوني، ذلك الصرح الذي يمثّل "الكرَم البعثي، والسماحة الأسدية"!!.

الأستاذ نقولا فلسطيني الأصل، أقام في سورية، وانتسب إلى حزب البعث، و"ترقّى" فيه إلى أن أصبح رئيس فرع الحزب في الحسكة.

وعندما قام حافظ أسد بانقلابه الذي أطاح برفاق دربه، نشأت معارضةٌ له في صفوف الحزب، وكان من الذين وقفوا معارضين: الأستاذ نقولا حنّا. ولكن ما هي إلا أيام قلائل حتى استتبّ الأمر لحافظ أسد، وإذا معظم المعارضين له في الحزب يتراجعون عن معارضتهم. إنهم مبدئيون! ومبدؤهم هو المحافظة على المواقع والمكاسب والامتيازات! وما دام هذا المبدأ يتحقق بالوقوف إلى جانب المتسلّط فليكن، فأصحاب المبادئ يدورون مع مبادئهم حيث دارت.

لكن اللئيم لم يغفر لهؤلاء أنهم عارضُوا حركته "التصحيحية" بضعة

أيام. فبدأ يترصَّدُهم، ويستفيد من كُتّاب التقارير، ثم يتصيّدهم، ويودِعهم في سجونه. وكان الأستاذ نقولا من نزلاء الحلبوني العتيد.

شخصية الأستاذ نقولا غنيّة بالصفات التي تميزه.

لقد كان يحفظ القرآن الكريم غيباً، ويعمل دائماً على مراجعة محفوظاته وتثبيتها!. ويقول: إنه في صغره تربّى في بعض الكتاتيب التي يعلّم فيها الشيوخُ تلامذتهم تلاوة القرآن. ولعلّ والده قد أدخله هذه الكتاتيب، لتعاطفه مع الإسلام، أو لثقته بأنّ جوّ هذه الكتاتيب هو الذي يضمن للطفل النظافة الأخلاقية، أو لعلمه بأنّ القرآن -في أقلّ الاعتبارات- هو كتاب العربية الأول.

وقد بقي الأستاذ نقولا -كما ذكرنا- على صلة ودّية عميقة بكتاب الله تعالى، وكان إلى جانب ذلك يحتفظ بنسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم ليقرأ فيها كذلك.

وهو -بالمناسبة- يحمل شهادة بكالوريوس في الأدب العربي، وشهادة بكالوريوس أخرى في اللغة الإنكليزية.

وثقافته العامة واسعة، واهتماماته متعددة، ومواهبه كذلك فائقة.

وحديثه عذب، فإذا كان في مجلس فهو الذي يتصدّر الحديث في ذلك المجلس، والآخرون يستمعون إليه أكثر مما يتدخلون، ويكون معظم تدخلهم باتجاه أن يستزيدوه.

وهو شاعر مُجيد، ولقصائده أثر كبير في حياته!.

ففي مطلع أيام الوحدة بين مصر وسورية، أعلنت الجمهورية العربية المتحدة الناشئة، عن مسابقة لأجمل قصيدة عن الوحدة، فكانت قصيدة نقولا هي الفائزة الأولى، فاستدعي إلى القاهرة لتسلّم الجائزة، وقابل هناك الرئيس جمال عبد الناصر الذي أعجب به، ودعاه للإقامة هناك، وأصبح مذيعاً في إذاعة صوت العرب، في زاوية يومية اسمها صوت فلسطين.

وفي أحد الأيام قدّم تعليقاً إذاعياً تهجّم فيه على أحد الزعماء العرب، كما هو شأن إذاعة صوت العرب، فاستدعي إلى المخابرات، حيث قيل له: ماذا جَنَيْتَ على نفسك؟! إنّ إذاعتنا، وإن كانت تهاجم ذلك الزعيم، وغيره كذلك، دائماً، فقد قررت التوقف عن مهاجمته، لأنّ زيارة مرتقبة سيقوم بها إلى مصر!.

قال: وما يدريني بذلك؟! ألم يكن عليكم أن تخبروني مسبقاً؟!.

المهم أنهم عزلوه من عمله في الإذاعة، ووضعوه تحت الإقامة الجبرية. وبعد حين توسط له بعض أصحابه عند أنور السادات الذي كان يومئذ رئيساً لمنظمة المؤتمر الإسلامي في القاهرة!.

وتمكّن السادات من رفع الحظر عن حركته، والسماح له بالسفر. وكان يحتاج إلى ثمن بطاقة طائرة ليسافر إلى سورية، فأمر السادات بصرف ثمن البطاقة من حساب منظمة المؤتمر الإسلامي! فقال له المحاسب: يا سيدي كيف نصرف من حسابنا، ونسجل في دفاترنا عَطاءً له وهو ليس بمسلم؟! قال السادات: اصرفْ، واكتب: صُرفت "للحجّي نقولا!".

وتمرّ الأيام ويصبح نقولا رئيساً لفرع حزب البعث في الحسكة، كما ذكرنا، ويقيم الفرع احتفالاً بمناسبة المولد النبوي، فيختار الشاعر نقولا أن يلقي قصيدة من شعره في هذه المناسبة.

لقد أسمعَنا أبيات هذه القصيدة التي تبلغ نحو سبعين بيتاً.

كانت الأبيات الخمسون الأولى إسلامية صرفة، يمتدح الشاعر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يمتدحه أي شاعر مسلم. فلما وصل إلى هذا الحد من القصيدة توقف قليلاً وقال: هنا يبدأ النفاق. وأكمل الأبيات الأخرى، وإذا هي تماماً كما يقول المنافقون من مشايخ السلطة: "رسول الله عظيم، ودينه عظيم، وأخلاقه عظيمة، وإذا أردتم أن تروا ترجمة عملية لهذه العظمة، وأردتم أن تروها متمثّلة في إنسان، فهذا الإنسان هو حافظ أسد".

إن تراجع الأستاذ نقولا عن معارضة "الحركة التصحيحية"، ومسايرته للوضع الجديد لم يشفع له، فقد بقي أسد ينتظر الفرصة المناسبة للانتقام منه فكان أن زجه في الحلبوني مدة سنتين. وكان من نصيبي أن أتعرف عليه هناك.

"الكَرُوم" و"الحسُون"

حين نُقلنا إلى سجن حلب المركزي، أصبح بإمكاننا لقاء سجناء من نوع آخر، منهم تجار المخدرات، ومنهم السارقون والقَتَلة والهاربون من خدمة العَلَم.. ومنهم من تمتزج تهمته بين "السياسي والمدني".
وكان من هذا النوع الأخير شاب اسمه أحمد كرّوم. في أواسط العشرينيات من عمره. متوسط الطول، نحيف، تشع عيناه ذكاءً، وتمتلئ جوارحه حيوية، يتحلّى بعدد من المواهب، مَرِحٌ، ودودٌ، حلو الحديث... ومن كان بهذه الصفات فهو يمتلك جاذبية وقدرة على إنشاء علاقات اجتماعية واسعة، وقد اصطاده البعثيون وجعلوه عضواً ناشطاً في "شبيبة الثورة"، وأصبح يعمل في تدريب الفرق المسرحية الشبيبية، وما يتصل بهذا الاختصاص.
وفي عمله ذاك كوّن صداقات حميمة مع عددٍ كبيرٍ من "الشبيبة" من الجنسين، وصل بعضها إلى مستوى الفضائح، ومع رجالات الحزب والأمن.
وحين جرى حفل افتتاح "سد الفرات" في صيف ١٩٧٣ قام بتدريب بعض الفتيات الشبيبيات، لتقديم عروض وأنشطة، من غناء وتمثيل، في ذلك الحفل الساهر!.
وأرسل مجموعة الفتيات برفقة عناصر من سرايا الدفاع شرقاً إلى "الطبقة" لإجراء تدريبات على المسرح نفسه الذي ستقام عليه العروض، قبل يوم الحفل الرسمي.

أما كرّوم نفسه فقد ذهب بمهمة حزبية غرباً إلى اللاذقية، فإذا قضى مهمته توجّه كذلك إلى "الطبقة" ليشارك في تنظيم الحفل.
يقول كروم: كانت المفاجأة أنني نزلت في منطقة "القسطل"، بين حلب واللاذقية، لأتناول طعام الغداء هناك في بعض الاستراحات، فوجدت -يا للفضيحة- مجموعة الفتيات ذاتها التي من المفروض أنها سافرت نحو الشرق إلى الطبقة، برفقة عناصر سرايا الدفاع!!.

* * *

وحدّثني السيد أحمد كرّوم أنّ والده رجل متديّن، وأنه من أتباع الشيخ أديب حسّون. قلت له: إذاً أنت تعرف الشيخ أحمد بن أديب حسون! قال: نعم، وهو صديقٌ لي. قلت: ما حقيقةُ ما يشاعُ عنه بأنه مرتبط بأجهزة المخابرات؟!.. قال: "هذا الكلام غير صحيح، وقد تدخلت بنفسي قبل ثلاث سنوات من أجل الإفراج عنه، عندما اعتقلته الشعبة السياسية، بعد أن تكلّم على المنبر بكلام يسيء إلى الدولة."
كلام السيد كرّوم لم أقتنع به، ولكنني قلت في نفسي: إنه يتكلم بما يعرف. ولعل هناك جوانب لا يدري بها.
ومضى على كلامه نحو سنة كاملة، ثم جاءني إلى غرفتي (في سجن حلب المركزي) وقال لي: لقد سألتني عن الشيخ أحمد حسون، وأجبتُكَ بكذا وكذا! قلت: نعم. قال: كان جوابي يمثّل ما كنت أعرفُه عنه فعلاً، أما الآن فقد جاءتني معلومة مناقضة تماماً! . قلت: وما ذاك؟. قال: زارني اليوم أحد الأصدقاء الحزبيين، وحدثني أن أحمد حسّون مرتبط بالشعبة السياسية، وذو موقع مهم فيها، وأن علاقته بها قد ابتدأت منذ أن اعتُقل عندهم قبل سنوات، فقد تمكنّوا، بقليلٍ من الضغط، وفَيضٍ من الإغراءات،

أن يشتروه!. لقد أصبح عميلاً لهم، بل عضواً فيهم، يسمحون له بهامش واسع من القول والحركة، بمقابل دورٍ هدّام يقوم به، من "إخباريات" ومن بثِّ إشاعات، ومن تفريقٍ في صفوف أبناء الصحوة الإسلامية، ومن تشويهٍ لبعض المفاهيم الإسلامية أو الشخصيات.
قلتُ: الحمد لله. لقد كان للرأي السائد عنه في المجتمع، سند متين!.

بقايا الفطرة

في الحديث القدسي الصحيح: "إني خلقتُ عبادي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتْهم عن دينهم.." رواه مسلم وغيره.
لا بد أن يظهر أثر الفطرة التي فطر الله الناس عليها، الفطرة التي تتوجه إلى عبادة الله تعالى وحده، وإلى فعل الخير ونبذ الشر. وقد ظهر أثر هذه الفطرة في نفوس بعض أهل الجاهلية الأولى، فمنهم من دخل في الإسلام بعدئذ، ومنهم من بقي على كفره!.
ووجود أثر الفطرة لا يعني بالضرورة أن الإنسان خيّر، إنما يعني أن الإنسان لا يمكن أن يتمحّض للشر. وقد تجد الشرير السيء الظالم المعتدي المتغطرس... يرقّ أحياناً، ويشفَ أحياناً، ويصنع الخير أحياناً. فنُقرُّ بأن ما ظهر منه خير، ونبقى على وصفه بأنه شرّير، حيث يكون الشرُّ هو السمة الغالبة فيه، ويكون الخيرُ كالنقاط البيض المبعثرة في ثوب أسود.
وقد مرّ في الصفحات السابقة لقطاتٌ من الخبر ضمن ركام الشرّ في نفوس الأشرار، نشير إلى بعضها ونذكر مزيداً:
فالجلاد أبو طلال يصلي أحياناً ويصوم أحياناً مع كل سوئه!.
والسجّان "بدري" كان يرى قطعة من الخبز مرميّة على الأرض فتثور ثائرته، ويعنّف المعتقلين الذي لم ينتبهوا إلى قطعة الخبز هذه: "ألا تخافون

الله؟! تُلقون النعمة على الأرض؟!" ولا يرى في جَلْدْ الأبرياء، وفي سرقة طعامهم، وفي القسوة عليهم... ما ينافي خوف الله!.

و"عدنان الدباغ" مدير المخابرات العامة، آنذاك يدير أعمال الظلم والطغيان والقهر والإذلال لعباد الله... ثم يرقّ قلبه في موقف خاص: لقد جاءت والدتي من حلب إلى دمشق لتزورني بعد سنة أو أكثر لم تعلم فيها شيئاً عن أخباري، لأن الداخل إلى سجون المخابرات –كما يقولون – مفقود، والخارج مولود.

جاءت وهي تحمل حقيبتين من الألبسة والأطعمة، وزن كل منهما نحو عشرة كيلو غرامات، وهي في سنّ يتجاوز الستين. وليس من شأنها أن تسافر مثل هذه الأسفار، وهي المرة الأولى التي تصل فيها إلى دمشق، وقد بذلت جهداً كبيراً في الوصول إلى "الحلبوني" لكنّ الصدمة التي لقيتها هي أنّ عناصر الفرع لم يسمحوا لها بزيارتي، وحين كرّرت توسّلاتها، وأصرّت على الدخول: قالوا لها: هناك حل واحد هو أن تأتي بإذن من مدير المخابرات العامة!. ودلّوها على مقرّه، فذهبت إليه، وقالت له: أيها الأفندي، تراني أمامك امرأة مسنّة، وقد جئت لزيارة ولدي فمنعوني من زيارته، وقد دفعت خمسين ليرة أجرة السفر، وعانيت الصعوبات حتى وصلت إلى الشام!.

فرقّ لها قلب الطاغية، وأخرج من دُرج مكتبه خمسين ليرة، ودفعها إليها، واتصل بإدارة فرع الحلبوني ليأذنوا لها بزيارتي!.

***

والرائد بخيتان، رئيس فرع مخابرات حلب، أبدى سروراً بالإفراج عني وعانقني وهنأني!، وهو نفسه الذي يدير شبكة الظلم!.

***

والحاج أحمد عاصي، هكذا كان يلقّب، هو عنصر مخابرات في

فرع حلب، برتبة مساعد، كان إذا مارس التحقيق مع أحد الموقوفين يحلو له أن يستعمل الكهرباء في التعذيب، وهو من أشد أنواع التعذيب، لكنه كان يحافظ على صلاته، كما يبدو، ويصوم رمضان، ولعله فعلاً قد حجّ البيت الحرام!، وفيه جوانب أخرى من الخير.

***

وجاسم الطيط، الجلاد الشهير الذي ذُقتُ وإخواني على يديه الويلات، هو نفسه أصبح عام ١٩٨٠ رئيساً لدورية تقف على حاجز عند مدخل حلب الغربي، وكنت أمرّ يومياً ذهاباً وإياباً عند غُدوّي إلى عملي وعند رواحي، فكانت الدوريات تقف على حواجز عدّة، فتستوقف السيارات، وتطلب هويّات الركاب، تماماً كما تفعل دوريات الجيش الإسرائيلي في فلسطين. وكنّا نتضايق من ذلك بلا شك. وفي إحدى المرات استوقفتنا الدورية التي يرأسها جاسم، وما إن رآني حتى تذكّرني وحيّاني وابتسم، وأذِن للسيارة بالعبور من غير تفتيش!!.

***

وعبد القادر حيزة المحقق في فرع مخابرات حلب، ودرجة ذكائه وأخلاقه مناسبة جّداً لصفات جلاد، لا صفات محقق!. مع ذلك فإنه حين جاء على رأس دورية لاعتقالي من الرقة، حيث كنت حينذاك رئيساً لورشة صوامع الحبوب هناك، وكانت معي زوجتي وطفلتي ذات الأشهر الثلاثة، أوصلنا أولاً إلى مركز انطلاق سيارات "التاكسي" المسافرة إلى حلب، وحجز في السيارة مقعدين، على حسابي، لكنه أوصى السائق بلهجة تهديد واضحة، أن يوصل زوجتي إلى بيت أهلها، وإذا مسّها سوء فسيتحمّل المسؤولية. وتأكيداً لتهديده سجّل رقم لوحة السيارة على ورقة عنده!.

وبعد فهذه نماذج لبقايا خير في نفوس الأشرار، تضؤل وتشحّ حتى تكون كشعرة بيضاء، في جلد ثور أسود، أو تزيد قليلاً لتكون كشعرات!.

نسأل الله الهداية لعباده، فاهتداء هؤلاء أحب إلينا من نزول عذاب الله فيهم. (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

يوميات السجن

نظرة عامة

لا بد من الإشارة إلى أن الحديث عن يوميات السجن يمكن أن يتناول طيفاً واسعاً من هذه اليوميات، فهي تتفاوت كثيراً بين سجنٍ وآخر، ويوم وآخر. فما يجري في فرع مخابرات حلب، مثلاً، يختلف عما يجري في فرع الحلبوني، وهذا يختلف عما يجري في سجن القلعة بدمشق، أو سجن حلب المركزي. وكثيراً ما كنّا نقول: إنّ رئيس كل فرع يتصرف كما لو كان رئيس دولة، ولكلِّ دولة نظامها!.

وفي الفرع الواحد يختلف النظام بين أيام الاعتقال الأولى، حيث تكون أعمال التحقيق في ذروتها، وتكون وجبات التعذيب "دسمةً جداً" وقد يقتصر طعام السجين على تلك "الوجبات"، وبين الأيام الأخرى حيث تنخفض وتيرة التحقيق، وتسير الأمور نحو "التطبيع"!.

وفي السجن الواحد كذلك يحدث بين الحين والآخر شيء ما، في السجن أو في البلد خارج السجن، فيؤدي إلى تلبّد الغيوم في سماء السجن، أقصد في قبو السجن! وتكفهرّ الوجوه، وتزداد المعاملة سوءاً، وتتخذ الإجراءات القمعية والانتقامية، من شتائم، وضرب بالخيزران، وتفتيش للأمتعة وإتلاف لبعض ممتلكات السجين...

وإذا استبدل برئيس الفرع رئيس جديد، تغيّر نظام السجن على هوى الرئيس الجديد.

وإذاً فالحديث عن يوميات السجن سيشكّل (بانوراما) تحتوي مشاهد مختلطة متجاورة ملوّنة بمختلف الألوان!.

***

وسأقدّم –بين يدي الموضوع– انطباعات عامة، منها ما حصلت عليه من خبرتي ومشاهداتي، ومنها ما استفدته من خبرات سجناء آخرين مرّوا بتجارب منوّعة في سجون سوريّة أخرى!.

من هذه الانطباعات، أنّ درجات القسوة والوحشية تتفاوت كثيراً بين سجن وآخر، ومرحلة وأخرى.

فالسجون المدنية أقلّ قسوة من سجون المخابرات، بفارق كبير.

وفرع مخابرات الحلبوني أقل سوءاً من فروع مخابرات "أمن الدولة" الأخرى، كفرع فلسطين، والفرع الداخلي (حيث محمد ناصيف وتركي علم الدين).

ومن أسوأ السجون سمعةً، في القسوة والحرمان والإذلال... سجن المزّة، وفرع مخابرات القوى الجوية (الآمرية).

وهذا كله في المرحلة الزمنية التي أتحدث عنها، مرحلة ١٩٧٣– ١٩٧٧، أما مرحلة عام ١٩٨٠ فما بعد فقد بلغ التعذيب حدوداً لا تخطر على بال إبليس، وفظائع فرع المخابرات العسكرية (السريان) في حلب، حيث مصطفى التاجر وزبانيته، قد فاقت ما كنّا نعرفه من شرور التعذيب. أما فظائع سجن تدمر فهي شيء آخر لا عهد للبشر به، فالضرب والإهانة، وتكسير الأضلاع، وفلق الرؤوس، وشق البطون، والضرب بأعقاب البنادق أو (بالكابلات) أو بمواسير المياه أو (بالبلوكات) الإسمنتية، والقتل تحت التعذيب، أو تحت الأقدام، أو بالرصاص، أو على المشنقة... جزء لا يتجزّأ من يوميات ذلك السجن الملعون. ولعلّ كتاب "تدمر، شاهد ومشهود" يحوي نماذج حيّة لممارسات الجلاوزة الحاقدين هناك.

ولولا أني سمعت شهادات متماثلة من عدد من السجناء الإسلاميين والعلمانيين، الذين كتب الله لهم النجاة من ذلك الجحيم... لما صدّقت ما حواه ذلك الكتاب الوثيقة!.

***

في ظروف القهر والتعذيب، والحرمان من الحرية، والدوس على الكرامة الشخصية، وفقدان الضروريات... يضطر السجين أحياناً إلى التفكير في صغائر الأمور، بل المشاجرة في هذه الصغائر!.

فحين يُذكر "السجن" أمام الذين لم يذوقوه! يتبادر إلى أذهانهم منه: الحبس في غرفة جماعية، أو زنزانة فردية، وربما بعض التعذيب كذلك. لكنه قلّ أن يخطر على بالهم معاناة السجين في الحصول على الطعام المناسب (في حدّه الأدنى!) والحصول على حقّه في دخول الخلاء لقضاء حاجته! والحصول على حقّه في أن يجد مكاناً ينام فيه، أو وسيلة يقصّ بها شعره أو يشذّب لحيته، أو يقلّم أظفاره، أو حماماً يغتسل فيه، أو مسماراً يدقّه في الجدار حتى يعلّق بعض ثيابه!...

الطعام

في بداية الاعتقال، في فرع مخابرات حلب، ولمدة شهر أو تزيد، كان نظام الطعام، والخروج بعده! ثنائي الوجبات. وجبة في الصباح، وأخرى في المساء، ويلي كل وجبة سماحٌ بالخروج إلى دورة المياه والمغسلة.

وكان الطعام في هذه المرحلة يتعاقب علينا بين أربعة أصناف ليس غير: الحلاوة والفول والحمّص والفلافل.

وكان معنا أحد إخواننا الشعراء، فبدا له أن يصف حالة السجن بأبيات ساخرة، من الشعر الذي يتفكه به الشعراء بين الحين والآخر، فيكون كالدعابة والمُلَح، بين قصائدهم العالية الرصينة:

وكان مما قاله، يصف طعام السجن هذا:

قد أتونا بالحـلاوةْ فـاسْتَبَتْ منا العقـولْ
فأسَفْناهـا مُلاوةْ ثم صارت صحن فـولْ

***

يا صحون الفول غيبي لم أعُدْ أهوى الطعامْ
نلْتُ منكنّ نصيبـي وعلى الدنيا السـلام

***

ها هو الحمّصُ يغلي في البطون الهائجاتْ
إنـه الإسـمنت مـجـبـولاً فهبّوا يا بُنـاة

***

أنقذونا يا عباد اللــــه من شـرّ الفلافلْ
واحفظوها للمنـايا فهي في الحرب قنابلْ

***

وليفكّر القارئ، ليس في مستوى المعيشة الذي يصبر فيه السجناء على هذا الطعام، بل ماذا يفعلون في شأن قضاء الحاجة، وليس يسمح لأحدهم بالخروج إلا مرّتين في اليوم؟!.

***

وبعد مرور هذا الشهر تحسّنت الحال، فقد أصبحت الوجبات ثلاثاً، وكان الطعام يؤتى به من إحدى الثكنات العسكرية، ثكنة هنانو، أي إنه طعام المجنّدين!.

ولا يظُنّنّ أحد أن الحالة أصبحت ممتازة، فلقد كنا في السجن حوالي أربعين معتقلاً، والطعام الذي يحضره السجانون من الثكنة مقبول، من حيث إنّه طعام للسجناء، ولكنْ!!

قبل توزيع الطعام يمر على إدارة الجمارك، أقصد على هيئة السجانين، ومَنْ وراء السجانين كذلك، فيقتطعون منه ما يشاؤون، ليأكلوا

حتى تنتفخ بطونهم، ويحفظوا حصة الغائبين منهم، ويرسلوا حصة إلى الضابط المناوب وإلى ذويه... ثم يوزعون الباقي.

وبشكلٍ خاص فإن اللحم والدجاج لا يصل إلينا منهما إلا (ما اختلط بعظم)! فقد كانت قطع اللحم تنزع لتكون من حصة الجلاوزة، وتوزع العظام وما عَلِقَ بها علي السجناء!.

ومرة كان فطورنا شاياً وزيتوناً. وكنّا خمسةً في غرفة واحدة فكانت حصة هذه الغرفة ٤ زيتونات!!.

***

لكنهم –شهادة لله– لم يكونوا يسرقون من الشاي، فهو يأتي في صفائح (تنكات) وعليه طبقة ظاهرة من الدهنيات، لأن الصفائح نفسها تكون قبل وضع الشاي فيها قد ملئت بالأرز المطبوخ، ولم تنظّف جيداً بعد ذلك!.

***

ولا بأسٍ بمزيدٍ من الحديث عن هذا الشاي: فقد كان يحضّر في الشكنة ضمن حلة كبيرة تتسع لحوالي مئة لتر، ثم يصبّ منها في الصفيحة (التنكة) التي ستنتقل إلينا، فينضمّ الدهن المأخوذ من الحلة إلى دهن الصفيحة، وتنقل الصفيحة إلى السجن، ثم يصب منها في أوعية صغيرة. فحصّة غرفتنا مثلاً كانت تأتينا بصفيحة معدنية مما كان يباع فيها الحلاوة!. ويصل إلينا الشاي دافئاً! وليس عندنا كؤوس حتى نصبّه فيه، فكنا نحمل صفيحة الحلاوة على التناوب ونتناول منها رشفات الشاي الدافئة!.

وحين كانت تتوافر لدينا ملاعق، نفتّ الخبز في الشاي ونتناوله طعاماً وشراباً، ونقول: فطورنا اليوم "فتّة شاي"!.

***

أما في الحلبوني فقد كانت هناك ثلاث وجبات يومية. يؤتى بالغداء من نادي صف الضباط، فهو طعام جيد في كمّه ونوعه، لكنه كذلك يمر على مجلس الزبانية قبل توزيعه، فيصادرون منه ما يحلو لهم، ويوزّعون الباقي، وهذا الباقي كان مقبولاً كذلك. أما الفطور والعشاء، فكانا في الغالب في غاية الرداءة كمّاً ونوعاً، فقد كانت إدارة السجن قد خصّصت مبلغاً معيناً ثمناً لوجبة السجين، وكلما جاءت موجة غلاء، وما أكثر تتابع هذه الأمواج، ضعفت القيمة الشرائية لهذا المخصّص، وصغُرت الوجبة، هذا إذا كان السجانون، وهم يشترون الطعام من بعض المحلات المجاورة، يدفعون القيمة المخصصة ولا يختلسون منها شيئاً!.

وكان دور السجّانين أن يحضروا لنا وجبات الطعام، ثم ينظّموا الأدوار في الخروج إلى "الخطّ" أي قضاء الحاجة، والسجّان الأمهر هو الذي يستطيع إنجاز المهمة بأسرع ما يمكن أي أن يستعجلنا، ويطرق بعصاه على باب الخلاء، ويرفع عقيرته بالنداء: بْصُرعة (أي اخرُج بسُرعة)!.

ومن طرائف ذلك أن السجين أبا راشد عبد الهادي كان بين الحين والآخر يتشاجر مع السجانين فيقول لهم: إنّ مهمتكم تنتهي بأن تطعمونا و (.........) أي تمكنونا من قضاء الحاجة. وقد نظم شاعرنا قصيدة يخاطب فيها الطاغية الكبير، فيقول فيها: إنّ جلاوزتك لا يملكون منّا القلب والفكر والعقيدة، لا يملكون سوى هاتين الحاجتين: الطعام وإخراج الفضلات.

مطلع القصيدة:

أوعى الرواة فمُ الزمان إذا روى

وهَبَ الثمار، وغيره يهب النّـوى

ويقول فيها:

لا يملكون لنـا، ولـو حكّمتهم

فينا سوى أمرين، إن صدقتْ "سوى"

فلقد نزيح بإذنهم فضلاتنا

ولقد نزيل بإذنهم شَبَحَ الطَّوى

وما أقسى أن يكون "الخروج إلى الخلاء" مطلباً، يضطر السجين فيه إلى تقديم الرجاء، لسجان وضيع، أو تقديم رشوة، حتى يحصل عليه؟!

وحين ننتقل إلى سجن القلعة، فإن هذه المشكلة تُحلُّ من جانب، وتعود إلى التعقيد من جانب آخر. ففي المهجع الذي كنا فيه، توجد دورة مياه. وإذاً لا حاجة لاستئذان السجان في قضاء الحاجة، ولكنْ!. كنا في بعض المراحل ٥٦ سجيناً في ذلك المهجع، بل كنّا، في مرحلة أخرى ٨١ سجيناً. وكل هؤلاء يتناوبون على دورة مياه واحدة! ففي أي ساعة من ليل أو نهار، حتى في الساعة الثانية ليلاً أو الرابعة صباحاً... يحتاج السجين إلى تسجيل دَوْر له بين المنتظرين، ويكون أمامه في الدَّور عشرة أو خمسة عشر أو سبعة وعشرون!! وعليه أن ينتظر.

إنها من المآسي التي يُسْتَحْيا عادةً من ذكرها، لكن السجين يعاني منها. والله في عونه.

كل ما في السجن مأساة يصنعها الطغاة والجلاوزة، ولا يخفف منها، عندنا، إلا الشعور بأننا في محنة، هي مقتضى عبوديتنا لله تعالى. بل إنّ هذا الشعور كان –في معظم الأحيان– ينسينا آلام المعاناة، ويُشعرنا بسعادة الراضين عن الله.

وكنّا نرى بعض أصحاب الانتماءات الأخرى يعيشون ظروفنا، وليس عندهم من معاني الإيمان ما يعوّضهم، فكانوا يعانون من الاكتئاب والانطواء والغضب المكبوت، ويهملون تنظيف أجسامهم وثيابهم وأماكن نومهم وقص أظفارهم وتمشيط شعور رؤوسهم!. وقد ينقلب هذا إلى

مشاجرات فيما بينهم، أو ينقلبون على المبادئ التي اعتُقلوا من أجلها. وكثيراً ما يتأثرون بنا، ويرجعون إلى الله!.

الدروس والمحاضرات

لا يخفى على الأصدقاء والأعداء أن النسبة العالية من أبناء جماعة الإخوان المسلمين هي من الفئة المتعلمة والمثقفة، فصغارهم طلاب في المراحل الإعدادية والثانوية والجامعية، وكبارهم من علماء الشريعة والأطباء والمهندسين والأدباء والمفكرين...

وحين تحشر مجموعة من هذه الشرائح في إحدى غرف السجن أو مهاجعه، يظهر أثر العلم والفكر في تجمعهم ولا شك. وحين يوضع واحد منهم في زنزانة انفرادية فإن أهم ما يشغل به نفسه هو حفظ القرآن الكريم، أو مراجعة محفوظاته!.

وحين يُنقل الأخ من الزنزانة إلى "الجماعية" يتعاون مع إخوة آخرين على استماع المحفوظات المتبادل، والازدياد منها.

ولا يقتصر الإخوان عادة على هذا، بل يقدّمون من يرونه صاحب علم فيهم، في أي مجال من العلوم الإسلامية، بل من العلوم الأخرى كذلك، لتقديم محاضراتٍ ودروس، وعقْدِ ندوات...

وكان أكثر ما يُروج في غرف الإخوان –في السجن– وفي المهاجع، مجالس التلاوة، وما يتبعها من ضبط قواعد التجويد، والوقوف عند بعض الآيات الكريمة لشرح مفردةٍ، أو تفسير آيةٍ كريمة، أو إعراب كلمة، أو بيان أحكام فقهية أو توجيهات حركية...

وكنا –على سبيل المثال– نجعل جلستين للتلاوة كل يوم، واحدةً وقتَ الضحى، وثانية في المساء، قبل طعام العشاء أو بعده.

ونزيد على ذلك بإقامة دروسٍ منوّعة في التفسير والفقه والحديث

وعلومه... وذلك حسب توافر صاحب الاختصاص، أو توافر بعض المراجع.
ففي سجن القلعة مثلاً توجد مكتبةٌ زوّدها أهل الخير بأمّهات الكتب، فكنّا نستعير منها ما نحتاج إليه.

بل إنني أذكر أن أحد إخواننا الأطباء المختصين، ألقى فينا عدداً من المحاضرات الطبية في موضوعات شائقة، لم يكن يخطر في بالنا أن تكون شائقة، قبل أن نستمع إليها، فقد كان موضوع إحدى المحاضرات: "النوم"!. قلنا حينئذ: وماذا يحدّثنا عن النوم؟ وهل النوم أمرٌ غامض حتى يحدّثنا عنه؟! لكن ما إن بدأ محاضرته حتى بدأ يفتّق أذهاننا بسلسلة من الأسئلة.. ممّا حوّل المحاضرة إلى ندوة، وما جعلنا نطالب بمحاضرة ثانية ثم ثالثة، لاستكمال موضوع النوم!.

وكذلك حاضَرَ فينا أحد الإخوة المختصين في موضوع "الثلاجة". وكان من العجيب أنه بدأ كلامه في أنه لن يتناول في محاضرته الأولى الحديث عن محرّك الثلاجة وآلية عملها وكيف يحدث التبريد، بل سيتحدث عن هيكل الثلاجة فقط، ويرجئ الحديث عن المحرك والتبريد إلى محاضرات تالية. وهنا كذلك كانت المحاضرة غنية، وتوالت الأسئلة الغزيرة حول هيكل الثلاجة... ما دعاه إلى تخصيص محاضرة ثانية، وربما ثالثة، لاستكمال الموضوع نفسه.

وهكذا كنا نملأ وقتنا بما يفيدنا في أمور الدين والدنيا، وما يجلب لنا المتعة كذلك.

وكان النزلاء من غير الإخوان ينبهرون بما يرون ويسمعون!!. وكانوا كذلك يُعجبون بنا ويحبوننا ويتأثرون بنا. وكم من سجين جاءنا وهو لا يعرف الصلاة ولا تلاوة القرآن... وخرج وهو خَلقٌ آخر!. حتى إن سجيناً أقام معنا نحو شهرين، ثم أفرج عنه، ثم اعتُقل مرة أخرى وجاءنا... قال: لقد فرحتْ زوجتي بتغير سلوكي، وبتحوّلي إلى الدين! وكانت تقول لي:

لو كُنتُ أعلم أنَّ احتكاكك بالإخوان عن طريق السجن يجعلك هكذا، لدعوت لك الله بأن يهيئ لك سجناً من قبل!.

صحيح إن نظام السجن ليس واحداً ولا ثابتاً، ولكن الأخ ينبغي أن يستفيد من وقته بأقصى ما يستطيع، وفق ما تتيحه كل مرحلة. وكم من أخ دخل السجن وهو لا يحفظ من القرآن إلا جزءاً أو اثنين، وخرج وهو يحفظ عشرة أجزاء أو عشرين، أو يحفظ القرآن الكريم كاملاً!.

ونزيد هنا: إنَّ نظام فرع مخابرات حلب لم يكن يسمح باقتناء المصحف الشريف، فضلاً عن الكتب الأخرى وعن الأقلام والدفاتر... وكنّا نحصل على ما نحصل عليه عن طريق رشوة بعض السجانين. وبما أن الذي نحصل عليه قليل فكنّا نعتمد بشكلٍ أساس على رصيدنا العلمي والثقافي والفكري... الذي نحمله في صدورنا قبل دخول السجن.

ونظام الحلبوني ليس أفضل بكثير، إلا في المرحلة التي أصبح فيها الرائد محمد أحمد فتح الله رئيساً للفرع فقد أعلن لنا –بعد حوارات معه– أن أي كتاب مسموح به في السوق، مسموحٌ به عندكم!. لكنَّ عهد هذا الرائد لم يستمرّ، بل عزلته إدارة المخابرات العامة بعد نحو سنةٍ واحدةٍ من توليه المسؤولية.

والسجن المدني بعكس سجون المخابرات، فإدارة السجن وعناصر الشرطة، حين تفتش الأمتعة والهدايا التي تأتي إلى السجين، تركّز على اكتشاف مخدرات أو سكاكين... في هذه الأمتعة، وبما أنَّ هذه الأمور ليست من اهتماماتنا، وليست مما يمكن أن يحضره لنا أهلونا فقد كان يسمح بإدخال كل شيء: الألبسة والأطعمة والكتب والأقلام والدفاتر... بل كان معنا رجل من أعضاء حزب التحرير، فكانت تصل إليه نشرات الحزب كذلك.

اللعب والمرح والأدب

كنّا كذلك نسلّي أنفسنا بما يخفف من ضغط السجن وكَرْبه. ففي أيام التحقيق والتعذيب كنا نتذكر أنّ المحنة والابتلاء من لوازم الانتماء لهذا الدين: (الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون). ونتذكّر كم لقي النبي صلى الله عليه وسلم، والأنبياء من قبله، وأصحابه ومن تبعهم بإحسان... من ألوان العذاب... ونتذكر أنّ قافلة دعوة الإخوان المسلمين قدّمت العشرات من الشهداء (قبل أن تقدّم الآلاف، وعشرات الآلاف فيما بعد، في مجازر تدمر وحماة وحلب وجسر الشغور وغيرها) والآلاف من المعتقلين أيام عبد الناصر....

وعندما تمضي أيام التحقيق وننعم ببعض الاستقرار، كان المرح والسرور والمزاح... هي التي تملأ مجالسنا، وقد نحوّل بعض مظاهر المأساة إلى مناسبة للفكاهة، سواء بما يتعلق بالطعام واللباس، أو بالنوم والحلاقة، أو بالسجانين والمحققين...

وكنّا نتبادل النكات، ونقوم ببعض الألعاب، وننظم بعض التمثيليات والنشيد والمسابقات الثقافية والمسرحيات!.. وقد يشعر بنا السجانون أحياناً، فيشاركوننا مرحنا، أو يتجاهلوننا، أو ينكّلون بنا.. حسب انتماء كل سجان، ودرجة تعاطفه، أو درجة حقده ولؤمه!.

وكان فينا الشعراء الذين ينظمون القصائد الجادّة العالية في أغلب الأحيان، أو الأبيات المرحة الساخرة في بعض الأحيان.

ومن الطرائف أنّ أحد الشعراء كان ينظم القصائد السياسية الملتزمة، فكنت أكتب نسخة من القصيدة، وأبدّل بعض الألفاظ بألفاظ أخرى مع المحافظة على الوزن والقافية، مخافة أن تقع بأيدي السجانين لدى أي تفتيش... فأزيل بعض الكلمات التي تُعد مستمسكاً شديداً

كاسم الأسد أو الدبّاغ (مدير المخابرات العامة)، أو البعث....

قال لي هذا الشاعر الظريف: هذه التعديلات والتغييرات في الكلمات لن تنقذك لو وقعت القصيدة في أيديهم. سيقولون لك: تتكلم عن الظلم والظالمين، ومَن الظالمون غيرنا؟! وتتكلم عن الخائنين للوطن والأمة: هل يوجد خائنونَ غيرنا؟! وتتكلم عن المتخاذلين أمام إسرائيل. ألسنا نحن المتخاذلين؟!. وتتكلم عن الجولان، أليس الرئيس هو الذي باع الجولان؟!..

قلت له: فعلاً، إنَّ حججهم قوية!.

الاغتسال

الاغتسال حاجة إنسانية، بما أن جسم الإنسان يتعرض للتعرق والغبار وسوى ذلك. وقد أكّده الإسلام فجعله مندوباً في أوقات عدة، كغسل الجمعة مثلاً، وجعله واجباً في أحوال معروفة.

والأصل في المعتقلات السورية أن يُحرَم المعتقل من هذا الحقّ، أو أن يضيّق عليه فيه..!.

ولكي نقوم بالاغتسال، المندوب منه والمفروض، كنا نحتال بشتى الحيل، وغالباً ما نفعله بالتجزئة! فعلى المغسلة نستخدم الماء والصابون في غسل وجوهنا وأيدينا إلى المرافق، وفي غسلِ رؤوسنا أحياناً... وكان هذا يضايق السجانين، لأن أحدنا يستهلك وقتاً زائداً لأجل أعمال النظافة هذه، والسجّان يريد أن يفرغ من مراقبتنا بأسرع وقت، ويحبسنا في غرفنا أو زنزاناتنا، ويقفل علينا الأبواب ويطمئن!.

وكنا كذلك، عند دخول الخلاء، نغسل ما استطعنا من أجسامنا. فإذا كان أحدنا جنباً كان يهيئ نفسه قبل دخول الخلاء فيلبس الجلابية، من دون أي شيء تحتها، فيخلعها في الخلاء، ويقضي حاجته ويغسل ما أمكنه

من جسده بسرعة فائقة ويخرج، ليكمل غسل رأسه على المغسلة....

وقد لا يتمكن من استكمال الغسل إلا على ثلاث دفعات، في الصباح وفي الظهيرة، والمساء... وقد يكون الجو بارداً جداً.

وإلى أن يكتمل غسل أحدنا كان يتيمّم ويصلي.

وبعضنا لا يستطيع استعمال الماء البارد في الغسل، فيخاف المرض، فيمضي أياماً وهو يصلي بالتيمم.

أما الاغتسال في الحمّام فلم يكن له نظام محدّد، فقد يكون الفاصل بين اغتسال وآخر أسبوعاً واحداً، أو عشرة أيام، أو أسبوعين، أو ثلاثة... وقد يكون الماء حاراً، وقد يكون بارداً... وفي كل الأحوال يكون مقترناً بضيق الوقت، فعلى السجين أن لا يستغرق أكثر من عشر دقائق، في معظم الأحيان.

الحلاقة

والحلاقة كذلك لم يكن لها وقت محدّد.

ففي كل فرع للمخابرات يوجد عنصرٌ حلاق، يستفيد من خدماته ضباط الفرع وعناصره. وبين حينٍ وآخر يُطلب منه أن يحلق للسجناء كذلك.

هناك الحلاقة الإجبارية التي يقصد بها حلق رأس السجين (على النمرة صفر!) أو حلق لحيته كذلك لإزالة المظهر الإسلامي الذي يؤذي مشاعر "البعث".

أما الحلاقة النظامية فهي في مستويين، مستوى تجاري، يقصد به الحلاق أن ينجز مهمةً مأموراً بها، وهي حلاقة وسط بين التزيين والتشويه. ومستوى جيد أو مقبول، وتكون للمعتقل الذي يدفع أجرة للحلاق الذي يفترض أنه موظف، ويقوم بعمله على أنه من واجبات مهنته التي وظف لأجلها.

وفي السجون المدنية يتغير الأمر كلياً، فهناك صالونات للحلاقة متواضعة، يعمل فيها سجناء مدنيون، مهنتهم الأصلية هي الحلاقة، فهم أصحاب مهارة، ويأخذون على عملهم أجرة مناسبة.

وكنّا أحياناً نتمكن من الحصول على أدوات للحلاقة فيقوم بعضنا بالحلاقة لبعضنا الآخر.

(أما ما سمعناه من أحوال الحمام والحلاقة في سجن تدمر، فهو لونٌ من التعذيب، بل من أحلك أنواع التعذيب، وقد تكون ضحيةُ الحمام، أو الحلاقة شهيداً أو أكثر، وعدداً من الجرحى، حالة بعضهم خطيرة، والعياذ بالله، وقاتل الله الذين نُزعت من قلوبهم الرحمة).

النوم

هل يجادل أحد في حق الإنسان في النوم؟ نعم، هذا الحق مجادل فيه في المعتقلات.

أما في أيام التحقيق فإن الحرمان من النوم نوع من أنواع التعذيب يمارسه الجلاوزة حتى يؤذوا السجين ويُذلّوه ويصلوا به إلى "الهلوسة" أو الانهيار!. وحتى يتحقّقوا من تنفيذ مهمتهم النبيلة فهم يجبرون السجين على البقاء واقفاً على قدميه، أو على قدم واحدة، وقد يكون عاري البدن وفي عنقه دولاب (إطار عَجَل سيارة)!. ثُم يمرون عليه —وهو في الزنزانة- كل بضع دقائق ليتأكدوا من حُسْن التزامه، فيصرخون صراخاً مفاجئاً عالي الدرجة، أو يخبطون على باب الزنزانة خبطة قوية، وقد يفتحون طاقة الباب ليتأكّدوا بأمّ أعينهم. قلع الله عيونهم!.

وحتى إذا تكرّموا عليه وسمحوا له بالاستلقاء على الأرض، فلن يفوتهم ذلك الإزعاج. إنهم يمرون أمام الزنزانة بين الفينة والأخرى، ويصرخون بأعلى أصواتهم، أو يضربون الأبواب بعقب الحذاء، أو بعقب

البندقية، أو بالخيزرانة...

ولكن ماذا بعد أيام التحقيق؟!.

هناك إزعاجان مضمونان للسجين داخل الزنزانة:

الأول هو أنَّ طول الزنزانة في الغالب لا يكفي لأن يمدَّ السجين جسمه ويرتاح. فإذا كان طول الإنسان عادة بين ١٦٠و ١٨٠سم فإن القصار فقط هم الذين يستطيعون أن يمدُّوا أجسامهم على طولها. بل إن بعض الزنازين لا تكفي لهؤلاء!.

والثاني: وسائل الراحة والدفء لا تكفي في الحد الأدنى للكفاية. ففي البدء يوضع السجين في غرفة عارية ليس فيها أي شيء. فإذا أراد النوم فلا نوم إلا على البلاط! لا فراش ولا غطاء ولا وسادة!.

وإذا مرّ يومان أو ثلاثة، بدأت أحوال الزنزانة تتحسن، فقد يعطى بطانية أو اثنتين... وعليه أن يتخذ من ذلك فراشاً وغطاءً ويجعل حذاءه وسادة!.

وفي الغرف الجماعية يكون الوضع أحسن قليلاً، وهو يختلف بين سجنٍ وآخر، ومرحلة وأخرى. ففي إحدى المراحل، كنا خمسةً في غرفة واحدة، وفي هذه الغرفة أربع بطانيات ليس غير!. بينما في مرحلة أخرى —في الحلبوني- كانت حصة السجين الواحد أربع بطانيات (يتكيّف بها السجين ليجعل منها الفراش والغطاء والوسادة).

أما مساحة المكان المتاح ففي أغلب الأحيان تكون صغيرة، بل صغيرة جداً! وكثيراً ما كان يتاح للسجين الواحد عرضٌ لا يتجاوز ٤٠ سم! وطول ضئيل يضطر السجين معه لأن يطويَ رجليه! وقد تزدحم الغرفة (الكبيرة) فينقسم السجناء إلى قسمين، قسم تكون رؤوسهم على جهة حائط، وقسم آخر تكون رؤوسهم على الحائط المقابل. أما الأرجل فإنها تتداخل أو تتراكب!.

وقد يزداد الزحام أكثر، فيضطر السجناء إلى النوم بالتناوب. فبعضهم ينام والباقون يقعدون في مساحة ضيقة جداً، ثم يستيقظ النائمون، أو يوقَظون، لينام زملاؤهم، ويقعدون!.

وبعض إدارات السجون تجبر السجناء على إبقاء المصابيح مضاءة في أثناء النوم!.

النوم راحة فعْلاً. لكن السجين محروم من هذه الراحة!.

الزيارات

لا شكّ أن ذوي المعتقل، من أبوين وزوج وأولاد، يرغبون في زيارة قريبهم، شوقاً إليه، واطمئناناً عليه، ومواساةً له...

لكنٍ إدارة السجون تتفاوت في مدى ما تسمح به من هذه الزيارات، لا سيما سجون المخابرات. فهي تمنع الزيارات في فترة الاعتقال الأولى، هذه الفترة التي تمتدّ أياماً، أو أسابيع، أو شهوراً... وحين تسمح بالزيارة تقيّدها بقيودٍ كثيرة، وقد تعود إلى منعها لسببٍ أو لغير سبب!.

وعلى سبيل المثال فإن الأشهر الخمسة التي قضيناها في فرع مخابرات حلب، لم يتمكن ذوو أي موقوف من زيارة صاحبهم أكثر من مرة واحدة، بل إن بعضهم لم يتمكن من زيارته مطلقاً!.

والزيارة -حين تتم- تكون بحضور واحد أو أكثر من الجلاوزة، للحيلولة دون نقل أي خبر، أو التحدث في شأن التعذيب والتحقيق، أو تحميل أي رسالة شفهية أو خطية... ولا تتجاوز الزيارة عادةً خمس عشرة دقيقة!.

وفي الحلبوني يفرّقون بين مصطلحين: زيارة ومقابلة.

فالزيارة عندهم هي أن يأتي بعض ذوي المعتقل إلى باب فرع الحلبوني ويسلّم بعض الهدايا للحرس حتى يوصلوها إلى المعتقل، ويبلّغوه

بوصول أهله!. وكثيراً ما تصل بعض هذه الهدايا فقط، إلى صاحبها!.

والزيارة، بهذا المعنى متاحة في معظم الأيام، والزائر لا يلتقي صاحبه ولا يراه!.

أما المقابلة فتعني أن يجلس الزائر وصاحبه المعتقل، بحضور بعض الزبانية، في غرفة الحرس، مدة ربع ساعة، تزيد قليلاً، أو تنقص قليلاً!.

وهذه المقابلة قد تتاح بمعدل مرة كل أربعة أشهر!.

وغني عن البيان فإن أي طعام أو متاع يحضره أهل الأخ المعتقل يخضع للتفتيش الدقيق، كما يخضع غالباً لشيءٍ آخر!.

ومضات

"نعم، أنا الذي بعت الجولان!"

من النكات المرّة التي كان يتناقلها الموقوفون في فروع المخابرات، هي أن يقولوا لمن يتوقعون له أن يقدَّم إلى محكمة أمن الدولة: بإمكانك أن تنكر كل شيء اعترفت عليه أمام المحقق، وذلك بأن تقول للقاضي: "لقد كانت اعترافاتي كلها تحت التعذيب! ولو أنهم طلبوا مني أن أعترف لهم بأنني أنا الذي بعت الجولان، لقلتُ لهم: نعم!".

اشطُبوا اسمه من الملفات جميعاً

كان أحد المعتقلين من إخواننا شاباً، في الثانية والعشرين من عمره، طالباً جامعياً، وقد ثبتت عليه "الجريمة" نفسها التي ثبتت على غيره! وهي انتماؤه إلى جماعة الإخوان المسلمين!.

لكن، كان لهذا الشاب مزية خاصة هي أن له أخاً شقيقاً، تاجراً كبيراً، ولم يكن هذا التاجر متديناً، بل كانت له علاقات وثيقة بالنقيب دياب، رئيس

فرع المخابرات العامة في حلب، وكانا يسهران معاً في بعض الليالي الحمراء أو الخضراء، وكان يُغرق النقيب بالهدايا، لا لوجه الله، ولا لسواد عيني النقيب، ولكن لأنه يحتاج إليه في تخليص البضائع، أو حل الإشكالات مع "ضريبة الدخل" وغير ذلك، فإن مكالمة هاتفية من النقيب الشهم كافية لحل الإشكالات جميعاً!.

كان قد مضى على اعتقال الشاب يومان أو ثلاثة، واتّصل أخوه التاجر بالنقيب ليقول له: إنّ أخي معتقل عندك، وأنت صاحب فَضْل!!.

اتصل النقيب، بدوره، بالمحقق عبد القادر حيزة، وكان يقوم بالتحقيق مع بعض إخواننا. فقال له: إنّ فلاناً، الشاب المعتقل عندك، أفْرِجْ عنه فوراً، ومزّق كلّ الأوراق التي تشكل "محضر التحقيق" بشأنه، واشطب اسمه من كل الملفّات.

وكان ذلك. وتم الإفراج الفوري عن أخينا الشاب.

وكان النقيب مخلصاً لصديق "السهرات" فنصحه بأن يُخرج أخاه من سورية كلها، لأنه لا يأمن أن يقوم فرع آخر من فروع المخابرات باعتقاله، وتخرج القضية من يده.

وكان ذلك أيضاً، والأخ يعيش خارج سورية منذ عام ١٩٧٣م.

لقد فرحنا لنجاة أخينا، وأسفنا للاعتبارات التي تتحكم في بلدنا المنكوب!.

ما هذا التناقض؟!

حدثني زميلٌ لي مهندس، اسمه (ش.ش)، وهو بعثي، جميل الصورة، اجتماعي، حلو الحديث... قال: جاءتني سيّدة تشكو إليّ أنّ أحد فروع المخابرات قد داهم بيتها، واعتقل ابنها، وهي لا تدري أي فرع هذا، وكلما ذهبت إلى أحد الفروع تسأل عنه، أنكروا أن يكون عندهم صاحب هذا الاسم!!.

يقول السيد (ش.ش): كان ابنها من أصدقائي، ولكنه كان ينتمي إلى "بعث" آخر، هو البعث اليميني، بعث أمين الحافظ أو بعث العراق!.
ويمضي (ش.ش): توقعت أن يكون هذا الصديق معتقلاً لدى فرع معيّن، وكان أحد ضباط ذلك الفرع صديقاً لي، فذهبت إليه وقلت له: إنّ فلاناً عندكم في السجن، وإنّ بال أمه مشغول عنده، وتريد أن تطمئن عليه...
قال الضابط: طمئنْها. إنه بخير. إنها مجرد تحقيقات بسيطة، وما هي إلا أيام قلائل حتى يعود إليها. وهو الآن مبسوط. وكل أسباب الراحة مهيّأة له، من طعام، و"تنفُس" وحسن معاملة....
قال السيد (ش.ش): عرفتُ أنّ الضابط يكذب عليّ، فقلت له: البعث العراقي التكريتي إذا اعتقل واحداً من رفاقنا يعذّبه، ويُذلّه، ويذيقه الأمرّين... وأنتم إذا اعتقلتم واحداً من جماعتهم تدلّلونه؟!. قال الضابط: أتريد أن أقول لك الحقيقة: والله، إنه يلقى من العذاب ما لا يطاق. إنه لا يعرف متى ينام، ومتى يفيق؟ ولا يذوق من الطعام إلا أسوأه... لقد نسي الحليب الذي رضعه من أمه!!.
فأجابه (ش.ش): العمى على الكذب!! منذ لحظات فقط، كنت تحدثني عن الدلال والرفاهية!! فكيف تريدني أن أصدّقك؟!.

"مستو" وعلبة الحلاوة!

في بعض مراحل السجن، كنا مع مجموعة من الإخوة في "الغرفة المظلمة". إنها إحدى الغرف الأربع المطلّة على الساحة، لكن لهذه الغرفة خصوصية! وهي أنّ شباكها صغير، لا تتجاوز مساحته ١×١م، وهو مرتفع كثيراً، ومغطى بشبك معدني، ذي قضبان غليظة متعامدة، لا تدع لدخول الهواء والنور إلا فتحات صغيرة مربّعة ٦سم×٦سم.
وكأن هذه الغرفة تخصص عندهم لعتاة المجرمين، لتكون سجناً في سجن!.

مع هذا كنا مسرورين لوضعنا في هذه الغرفة، فإن شباكها العالي الصغير يمنع السجانين من المرور بنا بين الحين والآخر ومراقبتنا. وإنَّ رؤية السجّان عذابٌ فوق العذاب!.

وبما أنَّ الخروج من الغرفة إلى المغسلة لا يتم إلا في أوقات محددة، وكثيراً ما نحتاج إلى استعمال الماء، فقد احتفظنا في الغرفة بإبريق وسطل من البلاستيك، نصبُّ على أيدينا -للوضوء وغيره- من الإبريق فوق السطل. وحين يتاح لنا الخروج نفرغ محتويات السطل في المغسلة...

وحصل أنَّ عقب السطل قد انثقب، ففكّر أحد إخواننا، وهو "مستو" الكردي، طالب الطب، بأن يقوم بلحامه؟!. أتى بغطاء بلاستيكي لعلبة الحلاوة، وأشعل فيه النار، فصارت قطرات منه تنزل فوق الثقب لينسدّ. ولكن في أثناء ذلك تنبعث من الاحتراق غازات بألوان مختلفة، وروائح خانقة. وهذا ما جعل أحد الإخوة يصرخ فيه: يا مستو، لقد خنقتنا! فأجاب مستو بغضب: أتراني أتسلّى ، ألا تراني أقوم بذلك خدمة لكم؟!.

انتهت الخصومة عند هذا الحد. وشعر الأخ أنه أساء فعلاً إلى أخيه مستو، فقام يعتذر إليه، ويصرُّ أن يقبّل يده، تعبيراً عن أسفه. ومستو يقول: "لقد سامحتُك، ولعلّي أنا الذي أسأت إليكم. وأنا الذي عليّ أن أقبّل يدك، وأن أعتذر من الإخوة جميعاً".

وكانت لحظة صفاء، وسالت دموع الإخوان تقديراً لموقف كل من الأخوين، وإعظاماً لروح الأخوّة، وحمداً لله على مشاعر الحب في الله.

ذكاء سجّان

من "تقاليد" سجن الحلبوني أنَّ المحقق يبدأ التحقيق مع "الموقوف" أي المعتقل، من غير تعذيب، إلا بعض اللكمات والتهديدات....

وبعد الجلسة الأولى يطلب من أحد السجانين أن يهيّئ "المعتقل" لجولة

جديدة من التحقيق. وهذه التهيئة تعني أن يعرِّضه للتعذيب الشديد، ثم يحضره إلى المحقق عند الطلب.

وحدث أنَّ معتقلاً أجنبياً، يحمل الجنسية الأسترالية كان نزيلاً في إحدى زنازين الحلبوني. وطلب المحقق من السجّان "خميس" أن يهيّئ ذلك المعتقل للتحقيق.

كان ذلك في الساعة الأخيرة من الدوام الصباحي.

وعند بداية الدوام المسائي، استدعى المحققُ السجّانَ وسأله: هل قمت بتعذيب الأجنبي الذي طلبتُ منك تعذيبه؟! قال: نعم يا سيدي. والله عذّبته عذاباً شديداً حتى "صار يحكي عربي!". قال المحقق: "يخرب ديارك. لقد قمت بتعذيب سجين آخر"!.

أبو طلال و"صديق المحقق"

أبو طلال، السجان الشهير، يقوم بعدد من المهمات، إحداها أنه سائق "سوبر".

وقد حدّثنا أنه كان يقود السيارة باتجاه الحلبوني، وإلى جانبه المحقق. ووقفت السيارة عند الإشارة الضوئية، وكان ذلك أمام أحد المقاهي. قال المحقق: انظرْ إلى ذاك الذي يجلس على تلك الطاولة، ويلبس القميص الأزرق، وبيده سيكارة... هل رأيتَه؟! قال أبو طلال: نعم. قال: متى أوصلتني إلى الفرع ارجع وأحضر لي هذا الرجلٍ.

رجع أبو طلال، ودخل المقهى، وربّتَ على كتف الرجل. نظر الرجل إليه: ماذا؟. قال: "امشِ معي. الآن تعرف. مطلوب إلى المخابرات!".

استجاب الرجل بطبيعة الحال، فانطلق به أبو طلال، وأدخله الفرع، وحشره في إحدى الزنزانات، وهو ينتظر أن يطلبه المحقق حتى يقدم له تلك الفريسة.

ومرَّت أيام، وتذكَّر المحقق أنه طلب ذلك الرجل، ولم يأته الجواب. وسأل أبا طلال عنه فقال: نعم يا سيدي لقد أحضرتُه كما قلت لي، وهو الآن في الزنزانة منذ خمسة أيام، ومتى أمرتني أحضرتُه إليك. قال المحقق: بئس ما صنعت!! إنه صديقي. وقد كنتُ مناوباً في الفرع يوم أن طلبتُه. وأحببتُ أن يأتي لنتسلّى معاً!.

الصحفي وليد جركس

هذا الصحفي من محافظة حمص، وكان يعمل في جريدة "النهار" اللبنانية.

وفي بعض المراحل كانت هذه الجريدة في عداء مع السلطات السورية.

وكان وليد جركس يسافر بين الحين والآخر بين دمشق وبيروت. وفي دمشق عقد صداقة مع "جورج درزي" وهو المصور الرسمي للدولة، وصاحب استوديو في شارع الصالحية. فكان كلما زار هذا الاستوديو اشترى منه بعض الصور، ليبيعها –بدوره– إلى جريدة النهار.

ومرة زاره، وسأله عما عنده من صور جديدة، فقال له: اصعد إلى السقيفة لتختار ما تريد.

وصعد وليد فوجد بالفعل عدداً كبيراً من الصور. لكنه شكَّ كثيراً بأن تكون تلك الصور مجازة!. فإنّ نشر تلك الصور تحتاج إلى إجازة من المخابرات العسكرية.

كانت تلك الصور تتعلق بجولة أحد المسؤولين الكبار في بعض المناطق، وفيها صور له بأوضاع غير لائقة، على موائد الخمر ونحو ذلك!!.

التقط وليد عدداً من هذه الصور فأخفاها في جيبه، واختار صوراً أخرى، من الصور التي يقدِّر أنها مجازة، وعرضها على صاحب الأستوديو، فباعه إياها.

أخذ وليد الصور غير المجازة، وباعها للجريدة. وراحت إدارة الجريدة تسوّق لهذه الصور: انتظروا صوراً فاضحة لبعض المسؤولين السوريين... ثم قامت بنشر إحدى هذه الصور.

استدعت المخابرات المصور جورج درزي، ولدى الحوار معه توقعوا أن يكون وليد هو الذي سرّب تلك الصور، فقاموا باختطافه من بيروت.

تم التحقيق مع الصحفي بأسلوب "حضاري"، استخدمت فيه تكنولوجيا الكهرباء والخيزران والدولاب... فاعترف، ببيع الصورة التي نشرتها تلك الجريدة.

ولكن الجريدة عادت فأعلنت عن صورة جديدة، وتم نشر هذه الصورة كذلك، فاستدعى المحقق وليداً ليحقق معه في هذه الصورة!. فأجابه وليد: انظر، لقد بعت الجريدةَ خمساً وعشرين صورة، فإذا أردتم ضربي وتعذيبي، فالأرخص لي أن تضربوني بالجملة، والجملة أرخص من المفرّق!.

العراقيان الشقيقان (س)

تعرّفنا في "الحلبوني" إلى أخوين شقيقين من العراق الشقيق!.

أصغرهما محمد (س) كان طالباً في جامعة دمشق، أبيض البشرة، ضئيل الجسم. وكان محسوباً على المعارضة العراقية، مرتبطاً بمكتب العراق —القيادة القومية لحزب البعث.

لكن هذا الشاب اتهم —فيما بعد- بالتواطؤ مع رئيس المكتب، الذي فرّ إلى العراق، وأخذ معه معظم وثائق المكتب، بعد أن كان من أقطاب المعارضة، ولو في الظاهر. وإذاً فالشبهة قوية في حقّه، أنه مدسوس لحساب النظام العراقي.

ولّما كان محمد (س) صديقاً لرئيس المكتب المذكور، ويتردّد عليه، فلربما كان مدسوساً كذلك.

وإنْ تهمة أقلّ من هذه كافية لاعتقاله.

تم اعتقال محمد (س)، وضغطَ عليه ضباط الحلبوني حتى اضطرّ أن يكتب رسالة إلى أخيه الأكبر عبد الوهاب (س) في بغداد، يقول له: إنه مريض وبحاجة إلى دخول المستشفى لإجراء عملية جراحية، ويرجوه أن يحضُرَ إليه.. ورسم له مخططاً يبينّ فيه عنوان بيته.

تسلَّم الأخ الأكبر الرسالة، فحمل معه مبلغاً جيداً من المال، ومجموعة من الهدايا الثمينة، وجاء إلى دمشق، ووصل إلى بيت أخيه، لكن عناصر المخابرات كانوا قد احتلّوا البيت. فلما طرق الباب، خرجوا إليه واستقبلوه!. وضعوا القيود في يديه، وجرّدوه من المال ومن الهدايا كذلك، وساقوه إلى الحلبوني، ولكن في غرفة غير غرفة أخيه.

كان من حظّنا أن عبد الوهاب (س) كان في غرفتنا. فهو رجل هادئ النفس، متّزن، رزين، دمث، ذو ثقافة سياسية وعلاقات حزبية بعيدة المدى.

ذكر لنا أنه كان قد زار سورية سرّاً لحضور مؤتمر لحزب البعث قبل أن يصل هذا الحزب إلى السلطة، وأنَّ هذا المؤتمر كان في مدينة حمص، وكان ممّن تعرّف إليهم في ذلك المؤتمر عبد الله الأحمر!.

وفي أثناء السجن كتب رسالة، سلّمها إلى إدارة السجن، ووجّهها إلى زميل المؤتمر القديم عبد الله الأحمر. ولكن لا نعلم أنه استفاد من ذلك شيئاً. فهل حجبت الرسالة، ولم تصل إلى غايتها، أم أنها وصلت فتنكّر السيد الأحمر لصاحبه، أم أنه أراد مساعدته فكانت "العين بصيرة واليد قصيرة!".

كان عبد الوهاب (س) يحدثنا عن التاريخ السياسي للعراق منذ مطلع القرن العشرين وحتى يومه هذا، فيذكر أسماء الملوك والرؤساء، وأسماء أعضاء مجالس الوزراء ووظائفهم واتجاهاتهم، وتوافقاتهم وخصوماتهم...

ومرّة أسرّ إليّ بكلمات، لا أدري لماذا خصّني بها دون إخواني الآخرين.

قال لي: إنَّ النظام الحاكم في بلدكم ينقم عليكم، ويحقد على الإسلام والمسلمين. وإنه لا بد أن تصطدموا به يوماً ما، وقد يكون الصدام عنيفاً، وستحتاجون إلى دعم من الحكومة العراقية... فإذا حصل ذلك فاعلموا أنَّ العراق مستعدّ لتقديم كل عون!.

نقبلُه في "الإخوان" على مضض!

أمضينا خمسة أشهر في فرع مخابرات حلب. كانت الأيام الأولى كثيفة في التحقيق وما يتبعه من تعذيب مادي ومعنوي. ثم خفّت حدّة التحقيق تدريجياً ولكن قلَّ أن يخلو أسبوع من بعض تحقيق، وذلك بغية استكمال الملفّات.

بعد هذا تمّ نقلنا إلى دمشق، حيث فرع التحقيق المركزي، في الحلبوني. وهناك بدأ المحقق يطالع تلك الملفّات، فلا يجد مجالاً للمزيد!. لكن موقعه في "فرع التحقيق المركزي" يقتضي منه القيام بأي تحقيق، ولو كان شكلياً، فراح يضع خطوطاً حمراً تحت بعض الجمل والسطور في ملفّاتنا، ثم يستدعينا واحداً واحداً، لمزيد من الاستيضاح والتفصيل.

وجد في أحد الملفّات اسم "الدكتور مصطفى السباعي" حين ذكر الأخ صاحب الملفّ أن الدكتور السباعي رحمه الله، هو الذي أسّس التنظيم في سورية. لكن السيد المحقق في فرع التحقيق المركزي لم يكن يعلم مَنْ صاحب هذا الاسم؟! لقد ظنّه واحداً من الإخوان الناشطين في هذه الأيام، وينبغي إصدارُ أمرٍ باعتقاله، وما درى هذا المحقق الفهمان أنَّ

الأستاذ السباعي –رحمه الله- أشهر من نارٍ على علم، فهو مؤسس التنظيم في سورية، وهو قائده، أو مراقبه العام، مدة اثني عشر عاماً، وهو مؤسس كلية الشريعة وعميدها الأول.... وهو في النهاية قد توفي عام ١٩٦٤، والآن –في نهاية عام ١٩٧٣- يسأل عنه المحقق.

لقد طلب المحقق من أخينا صاحب الملفّ، عنوان الدكتور السباعي، فأجابه: إنه في مقبرة الدحداح!. وكانت نكتة مُرّةً لا ندري هل أخجلت المحقق، أم أنَّ مستوى ثقافته يتناسق مع هذا الجهل؟!.

* * *

واستدعى كذلك واحداً من إخواننا، هو الأخ عبد الله س، وكان هذا الأخ ممن ابتُلي بالتدخين، على خلاف معظم أبناء الصف الإخواني. وكان الإخوة الذين تربطهم صلة تنظيمية بالأخ عبد الله س، من طلاب المرحلة الثانوية، وقد تم الإفراج عنهم مذ كانوا في فرع مخابرات حلب. فانتهزها الأخ عبد الله فرصة كي ينكر علاقته بالتنظيم، فحين دخل على المحقق استأذنه في أن يدخّن، فأذن له. وفي أثناء الحديث قال للمحقق: أنا لست منظماً، فالإخوان متمسكون بدينهم على نحوٍ عالٍ، أما أنا، وإن كنت مسلماً، وعلى جانب من التدين، لكنني أدخّن وأرتّاد دور السينما... ومن كان مثلي لا يقبله الإخوان في صفوفهم!. قال: وما شأنُ الذين اعترفتَ أنهم كانوا مسؤوليك في التنظيم؟! قال: إنها أسماء خيالية ابتكرتُها من مخيلتي كي أتخلصٍ من التعذيب. ولو أنك بحثت في الدنيا كلها فلن تجد لهذه الأسماء وجوداً في عالم الواقعِ.

اهتزّت قناعة المحقق فعلاً: لعلَ هذا الإنسان، كما قال، ليس من الإخوان!.

****

كان ذلك في الدوام الصباحي. وعاد الأخ عبد الله س إلى الغرفة، وحدثنا بما جرى بينه وبين المحقق.

وفي الدوام المسائي، استدعاني المحقق، فقد جاء دوري، في جولة استكمال التحقيق. وما إن دخلت عليه حتى قدم إليّ سيجارة!. قلت: أنا لا أدخن، والحمد لله!. قال لي: هل أنت فقط لا تدخن أم أنكم لا تقبلون المدخن في صفوفكم؟!. قلت له: قد نقبله على مضض!. فهز المحقق رأسه، وكأنه يربط بين كلامي وبين ما سمعه من الأخ عبد الله، ثم قال: وإذا كان يرتاد دور السينما هل تقبلونه؟! قلت "أبداً"! فهز رأسه ثانية.

لقد وصلت الرسالة. ويبدو أن المحقق الهمام رفع توصية إلى إدارة المخابرات العامة بالإفراج عن "عبد الله" لأنه ليس من الإخوان. وفعلا تم الإفراج عنه على رأس تسعة أشهر من اعتقاله. والحمد لله على سلامته، وقد استفدنا أحيانا من غباء بعض المحققين، ومن محدودية ثقافتهم، كما تضررنا بذلك في معظم الأحيان.

الذين اغتالوا محمد عمران

كان الثلاثي الأكثر نفوذاً في السلطة، في المرحلة الأولى من تسلّط البعث، أي في عهد أمين الحافظ، هم أعضاء اللجنة العسكرية المكوّنة من صلاح جديد وحافظ أسد ومحمد عمران.

وبترتيب هذه اللجنة كانت تُعَدّ قوائم بأسماء الضباط بالعشرات، أو بالمئات، للتسريح من الجيش، بحجة أنهم متواطئون، أو أنهم من أعداء الثورة! وكانت هذه القوائم تضم الضباط من أهل السنة، وقليلاً من أبناء الطوائف. ودفعةً من التسريحات إثر دفعة، كانت تتغير البنية الطائفية في الجيش، فإبعاد أهل السنة أولاً، ثم إبعاد عناصر من الطوائف الأخرى... والتعويض عن المسرّحين بعناصر جديدة، معظمهم من الطائفة النصيرية... كان يرفع نسبة النصيريين ونفوذهم بشكل ملحوظ.

ولكن حافظ أسد، مع هذا كله، أطاح، فيما بعد، برفيقيه. أما اللواء محمد عمران فقد أرسل إليه مجموعة تغتاله، وأما صلاح جديد فقد اعتقله، يوم قام بانقلابه الذي سمّاه حركة تصحيحية في ١٦ من تشرين ثاني ١٩٧٠، واعتقل معه القيادة القطرية بكاملها، إلا من تمكن منهم من الفرار، وهؤلاء الذين اعتقلهم بقوا في السجن نحو عشرين سنة أو تزيد، فمنهم من مات داخل السجن، ومنهم من أفرج عنه حين جاءت التقارير أنّ حالته الصحية متردّية، فأخرجه كي يموت بين أهله بعد أيام أو أسابيع من الإفراج عنه.
المجموعة التي كلفها أسد باغتيال محمد عمران، أتمت عملها بنجاح! ولكنها انكشفت، وحتى لا يؤدي انكشافها إلى انكشاف من كلّفها، فقد أمر أسد باعتقال العنصرين اللذين انكشفا، أو حامت حولهما الشبهات! وكانا رجلاً وامرأة! ووضع هذان في زنزانتين في "الحلبوني". ولدى التحقيق معهما، تبينّ لهما أنّ الأوامر قد جاءت إلى المحقق بأن يجعلهما كبش فداء، ويقطع الخيوط عندهما، فلا يثبت شيء، على من كلّفهما. لذا قررت المرأة أن تنتحر، واستخدمت بعض ثيابها، وخنقت نفسها شنقاً!.
ولا أدري ماذا كان مصير زميلها بعدئذ. فقد كان نزلاء الحلبوني يتناقلون قصة المرأة التي انتحرت!

قال: أبوس "كذا"

في أوائل شهر حزيران من عام ١٩٧٣م، وكنّا معتقلين في فرع مخابرات حلب، وكانت غرفتنا مقابل غرفة التحقيق والتعذيب، وكان الوقت بعد منتصف الليل، سمعنا جَلَبَةً تقترن عادة مع إحضار سجين جديد.
أدخل السجين إلى غرفة التحقيق، وبدأت الأسئلة تنهال عليه، وتنهال الخيزرانات والشتائم.

كان السجين، أو الموقوف، واحداً من مجموعة من الشباب المائع الذي ربّاه الحزب القائد.. وكانت هذه المجموعة التي يبلغ عددها ثلاثة أو أكثر، يخرج أفرادها من إحدى دور السينما في الحفلة الليلية، حيث رأوا رجلاً ومعه امرأة متبرّجة، ولم يعلموا أهي زوجته أم "صاحبته".. وراحوا يغازلونها غَزَلاً غليظاً، ويوجّهون إليها كلمات فاحشة.

ولم يكن الرجل سوى عنصر من المخابرات العامة، برتبة مساعد، ولم تكن المرأة سوى زوجته!

وماذا يستطيع المساعد أن يفعل مع هؤلاء الأشقياء.. إنه يلبس لباساً مدنياً، وهم لا يعرفون أنه مساعد في المخابرات.

وفجأة جاء الحل. لقد رأى المساعد سيارة تحمل دورية مخابرات. وهم تابعون للفرع نفسه الذي ينتمي إليه. فأشار إليهم باتجاه إلقاء القبض على العصابة، فسارعوا للاستجابة، لكن الشباب هربوا، ولم تتمكن الدورية من القبض إلا على واحد منهم.

جيء بهذا الشقي إلى الفرع، والتفّ حوله عدد من عناصر الفرع ليحققوا معه. لكننا -نحن في الغرفة المقابلة نتابع التحقيق- لمسنا شيئاً خاصاً، وهو أن "العناصر" الذين يحققون مع الشاب الشقي، يقصدون الانتقام من المساعد أكثر مما يقصدون التعذيب.

لقد كان التعذيب وسيلة فقط إلى فضح المساعد، فقد كان هذا المساعد مكروهاً من جميع عناصر الفرع أو من معظمهم.

المحقق: قل يا حقير ماذا قلت لامرأة المساعد؟!

الشاب: والله يا سيدي لم أقل لها شيئاً.

المحقق يغمز للجلادين لينهالوا عليه ضرباً، ويسأله: قل: ماذا قلت لها قبل أن نهلكك من التعذيب.

الشاب: يا سيدي، والله ما قلت لها شيئاً.

المحقق: ما زلتَ تكذب؟! قل: ماذا قلتَ لها.
الشاب: يا سيدي قلت لها: أبوس "كذا".
المحقق: يا حقير، أهكذا تقول لامرأة المساعد؟!.
الشاب: والله يا سيدي ما كنت أعرف أنها زوجة مساعد، بل ما كنت أعرف أنها زوجة الرجل الذي تمشي معه.
المحقق: إذاً أنت تتهمها بشرفها، وتحسبها امرأة ساقطة.
الشاب: يا سيدي وما ذنبي؟! لقد كان شكلها ولباسها يوحي بذلك.
المحقق: حسناً، سوف ترى ماذا نفعل بك أيها الساقط.

* * *

ويذهب المحقق والجلادون.

* * *

وفي الصباح تأتي مجموعة أخرى من العناصر:
قل لنا "وْلاك" ماذا قلت لامرأة المساعد.
- والله ما قلتُ لها شيئاً؟.
- لقد اعترفت سابقاً، ولا فائدة من الإنكار.
- والله ما قلتُ شيئاً.
- إذاً نعيد عليك التعذيب حتى تعترف من جديد.
- يا سيدي لقد قلت لها: أبوس "كذا".
- يا رذيل، أهكذا تقول لامرأة المساعد.

* * *

وتخرج المجموعة وأفرادها يتضاحكون...
ثم تأتي مجموعة أخرى، وتتكرر الأسطوانة: ماذا قلتَ؟ لم أقل شيئاً، اعترفْ، قلت لها أبوس ...
وتأتي مجموعة ثالثة ورابعة حتى يمرّ جميع أعضاء الفرع من محققين

وسجانين وحرس ليسمعوا الكلمة البذيئة وليخرجوا ضاحكين شامتين بالمساعد.

وفي المساء يفرج عن المعتقَل العظيم، إذ إنَّ جريمته لا تشكل خطراً على القائد أو على الحزب القائد.

الشمّري البدوي

من طرائف السجن أن يُسجن معنا في الحلبوني ذلك البدوي.

يقول أبو إبراهيم عن نفسه إنه منِ البدو الرحَّل، وإنه أمِّيّ لا يقرأ ولا يكتب، وإن الحكومة العراقية قد وطنته في بعض مضارب العشيرة في قرية قرب الحدود السورية، ونظمته كذلك في حزب البعث!.

وقد افتتح لنفسه دكاناً في القرية، وتعلَّم قيادة الدرّاجة الهوائية فصار يتنقل بها بين قريته وقرية قريبة ضمن الحدود السورية ليشتري بعض البضائع يزوّد بها دكّانه لا سيما "الناشد" أي السكاكر السورية المصنوعة في حلب في مصنع ناشد إخوان!.

إنه بذلك يتجاوز الحدود الدولية المقدّسة التي رسمها الاستعمار وفق اتفاقية (سايكس بيكو) وأمثالها!.

وفي أثناء إحدى رحلاته للتسوُّق! ضبطته المخابرات السورية واعتقلته، واعتقلت معه الدراجة كذلك، وصادرت له البضاعة المحمّلة، وتصل حمولتها إلى بضعة كيلوغرامات!.

وتم نقله إلى الحلبوني عبر عدد من المحطّات: الحسكة، دير الزور، حلب، دمشق. فكان يبيت في فرع المخابرات في كل محطة ليلةً أو أكثر، وكانت درّاجته تنتقل معه، وكانت بضاعته تتبخّر وتؤخذ منها ضريبة الجمرك! حتى إذا وصل إلى دمشق استهلك الجمرك ما بقي من البضاعة!.

كان معنا في الغرفة محلٌ إيناسٍ وألفة وتفكُّه. فهو يحمل بين جوانحه ذكاء البدوي، وصفاء الفطرة، وبراءة الضحية لشطري البعث في العراق وسورية.

كان عشاؤنا في إحدى الأمسيات تمراً! نعم: خبز وتمر. وبعد أن تعشينا وحمدنا الله، زادت كمية من التمر. وخطر في بال أحدنا أن يداعب إخوانه فيسألهم عن توقعاتهم لعدد التمرات التي أكلناها. فواحد يقدّر أنها مئة وعشرون، وآخر يقول بل هي أكثر، ربما كانت مئة وخمسين... وكانت الوسيلة التي ستحسم الأمر وتبينّ العدد الصحيح هي أن نَعُدَّ النَّوى!.

وبدأ أحد الإخوة بالعدّ، فقال أبو إبراهيم: ماذا تصنعون؟! قلنا: نعرف عدد التمرات من عدد النوى!. قال: كل التمر الذي أكلتُه أكلتُه بنَواه، وكنت أعجب منكم لماذا تلفظون النوى؟! وقد استغربنا كلامه، وكدنا نكذّبه: كيف يأكل النوى؟! لكنه قطع علينا تشككنا وأخذ مجموعة من التمر فمضغها وابتلعها مع نواها، ثم أخذ مجموعة ثانية كذلك من غير تكلُّفٍ ولا صعوبة!.

***

بقي الرجل معنا نحو شهر قبل أن يستدعيه المحقق، وهذه العادة كانت من التقاليد العريقة في الحلبوني. لكنه لما مَثُلَ بين يديه، ورأى هيئته، وسمع كلامه تعجّب كل العجب.

قال المحقق: أنت عميل للمخابرات العراقية، وقد دخلت سورية بتكليفٍ منها!.

أجابه أبو إبراهيم: نحن من البدو الرحّل، وقد وطّننا العراقيون في قرية، وجعلونا حزبيين.

المحقق: وماذا تفعلون بالحزب؟!.

أبو إبراهيم: يأتينا كل أسبوعين رجلٌ أفندي، يقعد على الكرسي، ونقعد

نحن على القاع (الأرض) وندغّ (نخفض) رؤوسنا، ويقول —ونردد خلفه:
أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة.
المحقق: هل تعرف معاني هذه الكلمات؟!.
أبو إبراهيم: يبدو أنه كانت هناك امرأة عظيمة، أمّها عربية اسمها خالدة، وكان عندها رسالة تخبّئها في مكانٍ ما!.
ضحك المحقق حتى كاد ينقلبُ على قفاه. وأمسك بسماعة الهاتف واتّصل برئيس الفرع: يا سيدي سأرسل إليك هذا الرفيق ليشرح لك شعار الحزب!.
ثم قال المحقق: نريد أن تتعاون معنا!.
قال: نعم. لماذا لا أتعاون؟. أنا راعي بلّ (إبل). فإذا كان عندكم بِل، فأنا مستعدّ لأرعاها لكم، ولا آخذ منكم أجراً كبيراً.

***

كان المحقق منطقياً فرفع توصية بالإفراج عنه، وأفرج عنه فعلاً بعد أسبوعين.
وبقيت مشكلة: من يعوّضه عن السكاكر التي جمركَتْها له فروع المخابرات؟! ومن يصلح له الدراجة التي أصابتها الأعطال لدى نقلها معه من فرع، إلى فرع؟! ومن يعطيه أجور المواصلات ليعود أدراجه من حلب إلى الحسكة؟! وهل سيسمح له بالعودة إلى العراق ويدوس بأقدامه تلك الحدود التي رسمها الاستعمار؟!.

الفهرس